مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الرُّومِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الرّوم

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الروم

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ ﴾

ابتدأت سورة الروم بِمِثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت. قال الله تعالى ﴿ الٓمٓ ﴾ وهي ثلاثة أحرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر، وهناك من اجتهد في معناها ودلالتها.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله تعالى سورة الروم ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿الٓمٓ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أوضح الله تبارك وتعالى بعد ذلك سنته في المداولة في شأن الروم، وما هو كائن وما سيكون قبل أن يكون، فقال تعالى ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أي: غُلِبَت الروم من قِبَلِ فارس، قال السعدي رحمه الله تعالى: وكانت الروم أهل كتاب، ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس[٢] وذكر ابن كثير رحمه الله تعالى: نزلت هذه الآيات حين غَلَبَت فارس الروم. وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم لأنهم أهل كتاب[٣] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال أهل التفسير: غَلبت فارس الروم، ففرح بذلك كفار مكة، وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب. وافتخروا على المسلمين، وقالوا: نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب[٤] مما يبين أن أهل الكفر يحبون أن يكثر الكفر ويسود سواده، وأن المؤمنين يحبون الحق وانتصاره، فكل فئة تُحب أن ينتصر من يقاربها أو يماثلها، من خير أو شر. مما يعطي نتيجة مهمة، بأن أهل الباطل لا يحبون إلا من هم على شاكلتهم، على مستوى الأمم، أو الجماعات، أو الأفراد، كما يفيد ذلك أن أهل الباطل لا يمكن أن ينصروا أهل الحق، وإن ناصروهم فلهدف وغاية هي أبعد من المناصرة، ولِمَكَاسِب يطمعون في تحقيقها وفق تقديراتهم وحسبانهم بما يتوقعون ويخططون له. مما يتطلب الحذر عند التعامل والتفاهم.

وعن أرض الروم قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وقد أطلق العرب على مجموع هذه الأمة اسم الروم، تفرقة بينهم، وبين الرومان اللاطينيين، وسموا الروم أيضاً بني الأصفر. ويُعرف الروم عند الإفرنج بالبيزنطيين،

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١/١٧)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٧٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٣٢-٤٣٣)

(٤) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢١٤)

نسبة إلى بيزنطة، اسم مدينة يونانية قديمة، واقعة على شاطئ البسفور[١] وكانت الروم عند بعثته صلى الله عليه وسلم قوة عُظمى، وكان ملكهم ذلك الوقت هرقل.

وورد البيان الكريم من غير ذكر اسم الغالب والمنتصر على الروم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لأن المدار هو بيان شأن الروم، الذين هم أهل الكتاب، ودون إظهار الغالب عليهم، باعتبار أن الغالب كانوا أهل أوثان، وتقليلاً من شأنهم وشأن انتصارهم، وإظهار الروم باعتبار أنهم مدار الحدث، وتقليل شأن ما يتمنونه المشركون من انتصار الفرس على الروم، ففرحكم أيها المشركون بانتصار الفرس على الروم لن يطول إلا بضع سنين، ففي البضع من السنين سوف تتغير الموازين كما يقضي الله تعالى به ويشاء.

وكذلك فيه إبراز قوة الحدث وأثره على شأن المغلوب، وعلى شأن من يتمنى النصر لهم من المسلمين. وكذلك إظهار كيف سيعودون للنصر على من غلبهم من دون ذكر للغالب، بما يؤكد عودة الغالب للهزيمة. كما أن في ذكر المغلوب ما يغني عن ذكر الغالب، لأنه قد عُرِف بالمقابل من هو المغلوب. فلا داعي لذكره، وهو من بلاغة البيان، وإظهار عظيم شأن هزيمة الروم، ولإفادة أن صاحب الحق قد يُهزم، ويُغلب، ولكن العاقبة له، على ما سيكون من ذلك الزمن المحدد ببضع سنين، ووفق ما أخبر به الله سبحانه وتعالى، وعلى ما سيأتي بيانه وتفصيله. ففرحكم أيها المشركون، وتعديكم على رسوله صلى الله عليه وسلم لن يطول، ففي بضع سنين سوف تتغير الموازين كما يقضي الله تعالى ويشاء.

ومن فوائد البيان أن فيه رد من الله تعالى على فرح المشركين بانتصار ذوي الأوثان على أهل الكتاب، فإن ذلك الحدث الذي هو ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ فإنه كائن في علمنا وتقديرنا، وحكمتنا، ولو شئنا لما غُلبَتِ الروم. كما أننا نريد أن نبين لكم أيها الناس مبالغة علمنا بما هو كائن حتى بتحديد حد ما وصلوا إليه، وهو ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أدنى أرض الروم من أرض العرب، وأن الغلبة في بضع سنين ستكون للروم على عدوهم ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ فسيغلب الروم الذين غَلَبُوهم في مدة قصيرة هي ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ أي: في حدود محتوى دلالة البضع سنين، وأقلها ثلاث سنين، وأقصاها تسع سنين. قال أبو قتادة ومجاهد رحمهم الله تعالى: أن البضع ما بين الثلاث إلى التسع[٢] وقيل: هو ما دون العشرة[٣]

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٢٧/٨-٧٢٨)
(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٧٦/١٣)
(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣/١٤)

وهذا الإنباء من الله تعالى آية من آيته سبحانه وتعالى. مُوجب للإيمان. فإن النصر متحقق بما لا ينقص عن الثلاث سنين، ولا يزيد عن العشر.

ثم يخبر الله تعالى بأنه المتفرد بالأمر والشأن ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ فالأمر لله تعالى وحده لا شريك له، قبل هزيمة الروم، وبعد أن تنتصر وتغلب الروم. ويفيد قوله تعالى ﴿مِن قَبْلُ﴾ الامتداد الزمني عما كان من قبل هذا الحدث، من أول الزمان. كما يفيد قوله تعالى ﴿وَمِنۢ بَعْدُ﴾ الامتداد الزمني عما سيكون من انتصار الروم، وجميع ما سيحدث في هذا الشأن وغيره على مدار الأزمان، فاستوعبت المستقبل كله. فليس الأمر متعلق بالأسباب فقط، بل الشأن متعلق بإرادتنا، وتقديرنا، وما نقضي به. فالأمر والشأن لله تعالى من قبل حدوث الحدث، ومن بعده. وبما يفيد أن الأمر لله تعالى في كل شأن، قبل حدوثه، وأثناء حدوثه، وبعد حدوثه. فما يشاء كائن ومتحقق، وما لم يشأ لن يتحقق ولن يكون. وإذا قاس الإنسان هذا الشأن على نفسه، أدرك أن الأمر كله لله تعالى، فعليه أن يسأله ويتضرع إليه، ويتوسل إليه فيما يحب تحصيله، أو دفعه وإبعاده.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن حال المؤمنين عندما ينتصر الروم خلال البضع سنين القادمة ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيوم تغلب الروم الفرس يفرح المؤمنون للروم ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ لهم، لأن القاسم المشترك مع الروم هو أنهم أهل كتاب. كما أن المسلمين أهل كتاب. وكذلك لأن في نصر الروم إظهار آية الإخبار من قبل، من أن الروم سوف تنتصر على من غلبها سابقاً. فَصَدَق المسلمون فيما أخبروا به المشركين من غلبة الروم على فارس في بضع سنين. وقد ورد إسناد النصر إلى الله تبارك وتعالى ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ بياناً بأن النصر كائن من الله تعالى حقيقة، بدليل الإخبار به قبل وقوعه. وهي آية والله عظيمة، إذ فيها دليل على أن هذا القرآن مُنَزَّلٌ من عند الله عَزَّ وجل، فقد أخبر بما سيكون قبل أن يكون، مع تحديد المدة الزمنية التي سيقع فيها النصر للروم.

ثم يخبر الله تعالى بهذا الدليل التقريري والمشاهد من انتصار الروم على الفرس بأنه ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالنصر منه وحده لا شريك له، بما يفيد أن الأسباب ليست في معزل عن إرادة الله تعالى وحكمته وحكمه وسلطانه، فإن شاء هزم ذوي الأسباب القوية بالأسباب الأقل قوة، كما هزم المشركين يوم بدر، وكما هزم الأحزاب في غزوة الأحزاب. فالنصر تحت مشيئته العزيز الحكيم ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فالمشيئة له، سواء كانت للمسلمين أو لعدوهم، وأنها ليست وفق مشيئة العباد، فليطلبه

المؤمن ممن يملك الأسباب والمشيئة سبحانه وتعالى. مما يغرس في المؤمن والأمة أن عليها الأخذ بالأسباب، والتوكل على الله تعالى، مع الدعاء والتضرع إليه، والتوكل عليه عَزَّ وجل. كما يُعَلِّمِ الفرد المؤمن كيف يكون في مسارات حياته، وما يواجه من العقبات والصعوبات، وقوة الموانع التي أمامه، بأن نصره وتفوقه بيد الله تعالى، فليأخذ بأسباب نصرة الله تعالى له في مسيرة حياته، بطاعته والتوكل عليه عَزَّ وجل، وسؤاله العون والسداد، والنصر فيما يطلبه ويبتغيه. كما يفيد أن الغالب هو الله تعالى، والمغلوب من لم يكن الله تعالى معه. ثم يبين الله جَلَّ جلاله أنه عزيز، يُذِلُ من يشاء بقهره وعزته وسلطانه، وأنه يرحم من يشاء بنصره على الظالم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو القاهر فوق عباده بعزته وعظيم سلطانه، وقدرته، وقوة قهره لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكثرة رحمته للعباد، من النصر والعطاء والفضل الذي لا يُحَدُّ ولا يُعد.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

يخبر الله تعالى بأن وعده حق، وكائن ونافذ كما وعد ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إن ربكم إذا وعد بوعدٍ فإنه متحقق كما وعد، فيؤكد سبحانه وتعالى بذلك أن كل شيء وعد به فإنه متحقق، ومنه ما سبق في شأن ظهور الروم وانتصارهم بعد أن غلبهم عدوهم ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ فإنهم بعد هزيمتهم سينتصرون، ويتحقق لهم النصر والفوز على عدوهم. فإن وعده نافذ وكائن، فلا يمنعه شيء، لأنه العزيز الذي له الغلبة والقهر. والرحمة بمن له الرحمة من عباده. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأكثر الناس لا يعلمون بحقيقة حُكمه وحكمته في كونه، وتدبيره وأفعاله الْمُحكَمَة الجارية وفق ما يحكم به من العدل بالحق. مما يفيد أن من تحقق هذا الفهم وهذا لإدراك في نفسه فإنه يدرك أن

حكم الله تعالى هو الذي يتحقق، وليس حكم غيره، ولا قوة ولا أثر للأسباب منفردة من دون مشيئة الله تعالى. وبالتالي تطمئن نفس المؤمن، ويزداد توكله على ربه جَلَّ شأنه. وفي هذا الوعد تهديد للكفرة، وتطمين للمؤمنين بأنه لن يحدث في الكون خلاف ما وعد وقضى به سبحانه وتعالى.

وفي قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استثناء الأكثر جهلاً من الأقل عدداً، ممن اتصف بالعلم من أهل الإيمان والتصديق، وهم المؤمنون، فأكثر الناس لا يعلمون ما يعلمه أهل الإيمان. فقرر السياق والبيان بحرف ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ تقرير علم أهل الإيمان، وتصديقهم بما يأتي من عند الله تعالى، ونفى عن أكثر الناس الذين هم أهل الكفر من أن يتحقق فيهم العلم الذي أعلم الله تعالى به عباده بأن وعده حق. ففي ذلك مدح للمؤمنين بتصديقهم، وتشنيع وذم للكافرين على جحودهم.

فأغلب الناس وأكثرهم قاصرون ومقصرون في علمهم، فلا يتجاوزون ما هو متعلق بمعاشهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ فمقدار علم أكثر الناس هو الظاهر من الحياة الدنيا، فيعلمون الظاهر منها، كأمور المعاش، ووجوه مكاسب الدنيا وأرباحها، وما يتعلق بحياتهم اليومية من المسكن والتجارة والتكسب، وما تتطلب وتقتضي طبيعة الحياة الدنيا من طلب العيش وتدبيره، وما يتعلق بالتنقل والأسفار، ونقل وتصريف التجارة ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ وأما عن شؤن وأمر الآخرة فهم عنها ساهون ومنغمسون في لهوهم، وجاهلون بها، فلا يتعلمون ما يحقق لهم الفوز بها، وإن علموا شيئاً فلا يأخذون به، لأنهم منشغلون بالدنيا ومهاراتها ومظاهرها.

وفي اثبات علمهم بظاهر من الحياة الدنيا، ما يثبت قدرتهم على العلم والتعلم، وفي قصر علمهم على ظاهر من الحياة الدنيا ما يفيد أن عين ومركز الاهتمام منحصر عندهم على جانب الحياة الدنيا، مع نفي اهتمامهم بالعلم المتعلق بالآخرة. وأن إهمالهم وتركهم لعلم الحياة الآخرة ليس لقصور في الفهم والمعرفة والقدرة، بل لحصرهم الاهتمام والعناية بالعلم المتعلق بمظاهر من الحياة الدنيا. مما يفيد الانتباه والحذر مما هم فيه من قصر الاهتمام على المرابح والمكاسب الدنيوية، والغفلة عن الالتفات والاهتمام بشأن الآخرة.

ومن الدقة البيانية لمقدار علمهم من الحياة الدنيا أنه بعضاً من العلم الظاهر، فحرف ﴿مِّنَ﴾ يفيد التبعيض الذي يعطي دلالة التقليل والقليل من العلم، وأنه زهيد وشيء وبعض من ظاهر الحياة الدنيا ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وبما يفيد أن هناك علم آخر، هو غير الظواهر المتمثل في المعاش ومتطلبات الدنيا. وهو العلم بالآخرة، فإن أصل الدنيا للآخرة، فالدنيا مزرعة للآخرة، فإن مَن يزرع مستهدفاً السوق فإنه يعرف ماذا يزرع، ومتى يزرع. فكذلك الذي يزرع للآخرة، يعرف أوقات

الفرائض، والمستحبات، وأماكنها، وأوقاتها، فيهتم بها ويؤديها. فهو بيان إرشادي عظيم من الله تعالى. مما يفيد ذم الذين حالهم مقصور على الدنيا. وهجران وترك التي هي خير وأبقى. وفي وصفهم بالغفلة ﴿ وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ ما يدل على سهوهم عن الآخرة، فالغفلة: سهو الإنسان عن الشيء المطلوب، الذي يلزم منه العناية والاهتمام به، فهم ساهون عن الحقائق المهمة، التي هي حقائق الآخرة.

ومن دقائق البيان أن الذم كان واقعاً على قصر العلم على الدنيا، دون الآخرة، مما يفيد أن الاهتمام بالدنيا، وتسخيرها للآخرة هو من الحق والخير، فهو أمر ليس بمذموم، بل إن الله تعالى أمر بالسير في مناكب الأرض، والأكل منها، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ حتى في هذه الآية من سورة الملك يشير سبحانه وتعالى إلى الآخرة بأنه إليه النشور، بما يفيد: وأنتم تسعون في مناكب الأرض، لا تنسوا عودتكم إلى ربكم، فلا تنسوا الآخرة، فاعملوا لها، ولا تلهيكم الدنيا عن الآخرة. فإن فهم العلاقة بين الدنيا ولآخرة مهم جداً لمسلك المؤمن والإنسان عموماً. ولذلك من المهم جداً عند تعليم المتعلم وتوجيه ونصح الناس أن تُبرَز لهم تلك الحقائق ودقائقها.

ثم يلومهم ويوبخهم اللهُ تعالى على عدم تفكرهم فيما يجب عليهم الاهتمام به من شأن الآخرة، والعناية بأمرها ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ سؤال استفهام يقرر به سبحانه وتعالى أن في أنفسهم من الآيات والدلائل التي تلزمهم الإيمان بأن الله تعالى خلقهم بالحق المنافي للباطل، وبالحكمة المنافية للعبث، وما يلحق بذلك من البعث بعد الموت والحساب والجزاء، والذي يجعلهم يهتمون بشأن بالآخرة، وكذلك خلق السماوات والأرض وما بينهما، والمملوء بالدلائل على البعث بعد الموت، والحساب والجزاء. ولكن مع كثرة الآيات فإن الكثير من الناس مُنكرون للبعث بعد الموت، ولقاء ربهم للحساب والجزاء.

فاستهل التوجيه الكريم بتقرير ذلك، واستنكار مسلكهم وغفلتهم بسؤال تقريري، وإنكار على عدم استدلالهم بما يرن على ما لا يرون من الغيب. فبدأ البيان الكريم باستثارة الفكر والتفكير بجملة استفهامية عظيمة ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ ألم يتأملوا في خلق أنفسهم؟ والتي تفيد السؤال عن سبب إغفالهم وغفلتهم عن التفكير في أنفسهم وعن خلق السماوات والأرض وما في ذلك من الدلائل العظيمة الكثيرة، التي توضح لهم أن الله تعالى خلق خلقه بالحق، وليس بالباطل، الذي ينتفي معه الهمل والإهمال لما خلق. فإن البيان الكريم يستثير السؤال عن سرحان عقولهم عن النظر والتأمل بالبصيرة العاقلة، بما يحقق الاهتداء، وذلك بِسَوق الفكر إلى أن هذا الملكوت لا

يكون إلا لمن خلقه، وهو لله تعالى الخالق المدبر، وأن ما فيه من الدقة دلالة على أنه ليس للعبث، بل لإقامة الحق وفق ما شرع. وهو سؤال تعجب من حالهم، وكذلك فيه إنكار وتوبيخ وتقريع من صدودهم عن رسالة الله تعالى، وعن حججه وعن نبوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتحديداً عدم تأملهم في أنفسهم وفي آيات السماوات والأرض، وجميع ما خلق الله تعالى، أفلا يتأملون ويتدبرون فيعقلون؟ أولم يتفكروا وينتفعوا بنعمة التفكير التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وعلى الإنسان عموماً؟ فلو استخدموها لفقهوا بها وآمنوا. مما يفيد أهمية التفكر في النفس، وفي ملكوت الله تعالى، فإن التفكر فيها يعيد العقل للصواب، ويتقوى به إيمان المؤمن، ويستدل به الكافر على وحدانية الله تعالى، وربوبيته وألوهيته.

فالدليل الأول: منعقد في خلق ذواتهم، فيما يتعلق بمكونات النفس البشرية، وطبيعتها، وتجانسها ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ فلو تفكروا في أنفسهم، وما أعطاهم وزودهم الله تعالى به من العقل والنظر والسمع، وجميع الحواس الأخرى التي يعقلون بها الحق من الباطل، والخير من الشر، لو تفكروا فيها لكانت لهم هداية، ولو تفكروا في مراحل خلق أنفسهم بدأ من النطفة إلى الشيخوخة، وإلى الممات، وتعاقب الأجيال لأدركوا الحق، وحقيقة الحياة، وما تدل عليه من انعدام العبث فيما خلق الله سبحانه وتعالى. فيتقرر بذلك الحق في الخلق، والحساب والجزاء. وأن لكل امرئ بما اكتسب، كما أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلم، وكتاب الله القرآن العظيم. مما يبين أهمية التأمل والتفكر في أحوال النفس، لما فيها من العبر والدروس الإيمانية.

والدليل الثاني: متعلق بعموم وشمولية الخلق ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ فهو نَفْيٌ مِن أن الله تعالى قد خلق السماوات والأرض وما بينهما بغير الحق، من الباطل والفساد، والإهمال، فأثبت للعباد أن خلق الكون كائن بالحق، الذي هو ضد العبث. بل ورد البيان بأسلوب الحصر والقصر، الذي حصر الخلق بالحق فقط، وليس بضده ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ فهو بيان قصر، بأسلوب نفي غير الحق من العبث وغيره ﴿ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ثم يؤكد سبحانه وتعالى حقيقة أخرى موضحة ومبينة لحقيقة الحق، وهي ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ وهو يوم القيامة، فهذا الكون مخلوق إلى أجل مسمى، وهو إلى يوم القيامة، الذي يُفنى اللهُ تعالى فيه الخلائق، ويبعث فيه الأموات، ويجري الحساب والجزاء. وأن كل شيء من صنوف التدبير لخلقه يدل على ذلك، فالموت يدل على النهايات، والإحياء للأرض بعد موتها، يدل على البعث بعد الموت، كما أن موتها بعد إحيائها، وتعاقب ذلك التغاير يؤكد كمال القدرة على ذلك، وكذلك تعاقب الناس والأجيال، وتعاقب الليل والنهار، دلائل على كمال القدرة، والحكمة، والحق وقوته، وأن هناك بعث بعد الموت كما أخبر به عَزَّ وجل في كتابه القرآن العظيم، وأخبر به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى بحقيقة الناس فيما يرون من آيات الله العظيمة التي في أنفسهم، وكذلك التي امتلأ بها الكون كله ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ منكرون، جاحدون للبعث بعد الموت. والقليل هم الذين يؤمنون بلقاء الله تعالى، والرجوع إليه، ومحاسبته لهم، ومجازاة كل بما اكتسب من الخير والشر. وأما أكثر الناس فمنشغلون بظاهر من الحياة الدنيا، فأصبحوا عن الآخرة هم غافلون، فترتب على ذلك أنهم بلقاء ربهم كافرون. مما يعلم الناس الحقائق التي أكثرهم بها جاهلون، وأنه يجب عليهم الانتباه، واليقظة، وأن لا يجعلوا من الكثرة الغافلة هم القدوة والأسوة لهم. مما يبين أن الحق هو الحق ولو قل سواد الأخذين به. كما يدل على أن أكثر الناس يتمادون في ملذات الدنيا واستعجالها، ويؤثرون القريب الفاني على البعيد الباقي.

بما يفيد أن خلقكم وخلق الكون ليس هو على سبيل العبث، الذي ليس له محصلة ولا فائدة منه وله. ولا لحكمة وغاية أردناها من خلقكم. فمن كان حسبانه هذا فإن دلائل الخلق لمن تفكر فيها تُثبت له خطأ حسبانه وتفكيره. فأكثر الناس حسبانهم وتفكيرهم قائم على أنهم ﴿بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ أي منكرون له. وبالتالي فإن حسبانهم قائم على أنه لا حياة إلا الحياة الدنيا، فلا بعث، ولا رجوع لربهم للحساب والجزاء. بما يفيد أن خلقهم ليس لهدف ولا غاية.

بل إن خلقهم لغاية وهدف، وهو عبادة الله تعالى، كما جاء في سورة الذاريات ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ فيجب أن تلزموا هذا الهدف، وتؤدونه، وتقومون به خير قيام. فإنكم عائدون لربكم بالرجوع إليه، حتى يحاسبكم ويجازيكم على ما كان منكم. وهذا دليل على البعث بعد الموت، وعلى الحساب والجزاء. كما يفيد هذا البلاغ من الله تعالى على أن هناك منهجاً وضعه عَزَّ وجل للعباد، ولا بد لهذا المنهج من مُبَلِّغ لهم به، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام. فمن تأمل بيان ربنا عرف منه ما يترتب عليه من الحقائق الشرعية والقدرية والكونية، مما يفتح الذهن على الحق، وعلى حقائق الوجود.

ثم يتعاقب البيان في وعظ العباد بما في الأرض من آثار الأمم التي تم عقابها من الله تعالى، لكفرهم بما جاءتهم به رُسُولُهم من الحق. فقال تبارك وتعالى ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ألم يحصل لهؤلاء المشركين أن ساروا في الأرض عند أسفارهم، فمروا وأتوا على ديار المكذبين الذين أهلكناهم بعذابنا، فيعتبروا بما فيها من آيات العذاب التي نزلت بغيرهم. وهو سؤال يقرر لهم به أنهم قد سافروا من خلال رحلتهم التي أثبتها

الله تعالى في سورة قريش، من رحلة الشتاء والصيف. فَيُورِدُ الله تبارك وتعالى سؤالاً تقريرياً بما حصل لهم من النظر والمرور بديار أهل العذاب، وكذلك هو استنكار ولوم وتوبيخ، يستنكر به على المشركين والصادين والمنكرين والكافرين به وبرسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم لم يتعظوا بما رأوا.

وهو كذلك بلاغ وإرشاد للصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظرون فيما حل من العذاب بالكفرة من الأمم التي قبلهم، فيكون سيرهم لرؤية الدليل وما يتعظوا به من الآيات ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ألم يحصل منهم السير في الأرض، وهو سؤال تقريع وتوبيخ وتقرير في نفس الوقت، وهو توبيخ وتقريع لعدم استفادتهم مما رأوا من أثار الهالكين بالعذاب، وتقرير بآثار الهالكين أن العذاب واقع من الله تعالى على من كذب بالرسول صلى الله عليه وسلم.

ألم يحصل منهم السير في الأرض ﴿ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فيتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب. وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن شدة قوة من كان قبلهم، مقارنة بقوة الْمُخَاطَبين من أهل مكة من المشركين آنذاك ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ لقد كان الذين من قبلكم أكثر وأقوى منكم في القدرات والإمكانات حتى أنهم ﴿ وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: حرثوها بتقليبها، فزرعوها بعد أن هيأوها بالحرث وجداول السقاء بالماء ﴿ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ وشيدوها بالقصور والمصانع، والزروع، ومجاري المياه، ونحت الجبال، وإنشاء النوادي لمجالسهم، فعمروها أكثر مما عمر أهل مكة وشيدوا، ومع ذلك لم تغنهم قوتهم وحرثهم وتشييدهم، وسكناها والتمتع بها.

وقد أرسل الله تعالى لهم الرسل كما أرسل لكم رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ﴾ فقد جاءتهم رسلهم بالدلائل والحجج الواضحات الظاهرات ﴿ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ فلم يكن من الله تعالى ظلم لهم من غير ذنب ومعصية بكفرهم لَمَّا جاءهم الحق، فأنكروه وجحدوه، فتحقق الظلم منهم لأنفسهم ﴿ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ فكان التكذيب والعناد والإصرار على الكفر من أنفسهم. فتحقق الظلم منهم لأنفسهم، وليس من الله تبارك وتعالى لهم، فإن الله ربكم سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

ثم يخبر الله تعالى بأن عاقبة أهل السوء أسوء العواقب، لتكذيبهم بالله تعالى، وسخريتهم بآياته التي جاء بها المرسلون ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ فيخبر الله تعالى بالعاقبة التي حلت بأهل السوء ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ فكان عاقبة الذين أساؤوا هي ﴿ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ أي: العذاب الذي حل بهم، فكان الجزاء من جنس العمل. أساؤوا فأهلكهم السوء. وهذا السوء الذي منهم هو: ﴿ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أنكروا حجج الله تعالى وآياته وبراهينه التي جاءت بها الرسل عليهم السلام ﴿ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ وكانوا يسخرون ويستهزئون بها. فاستحقوا ما جاءهم من عذاب ربهم.

ثم يؤكد ويبين سبحانه وتعالى انفراده بإنشاء الخلق، ويؤكد لعباده على إعادة الخلق، ورجوعهم إليه للحساب والقضاء والجزاء ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ فانطلقت الآية الكريمة ببدء الخلق بأنه له عَزَّ وجل لا شريك له، بل هو المنفرد به ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ﴾ لا غيره له فيه إرادة أو فعل. وورد البدء بصيغة الفعل المضارع ﴿ يَبۡدَؤُاْ ﴾ الذي يفيد الاستمرار في الخلق، والإحداث والتجديد فيما ترون من المخلوقات الحادثة في الكون، ومن استمرار تجدد خلق الإنسان والحيوان والنبات، وتجدد الليل والنهار، والشمس والقمر، وغير ذلك من خلقه، والدالة على أن الذي يخلق هو الذي بدأ الخلق، وهو الذي خلق من كان قبلكم، وأماتهم كما سيميتكم. فهي دلائل ظاهرة على إبطال الشريك، وإثبات وحدانية الله تعالى. وهو استدلال لا يسع أحد أن ينكر وحدانية الله عَزَّ وجل، لينتقل البيان بعد ذلك إلى إعادة الخلق بعد إفنائهم بقدرته وتدبيره عَزَّ وجل.

ثم يزداد بسط دلائل انفراده سبحانه وتعالى بتدبير شأن ملكه عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ ثم يعيد خلقه بعد إفنائه، وأورد سبحانه وتعالى الإعادة بحرف الترتيب ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد التتالي والتتابع. كما ذكر البيان إعادة الخلق من دون ذكر الإفناء في هذه الآية الكريمة، وذلك من بلاغة البيان، لأن الإعادة كائنة بعد الإفناء، فأغنت الإعادة عن التنصيص عليها. فأثبت بذلك سبحانه وتعالى الإعادة بدلالة بدأ الخلق، ومشاهدة الْمُخَاطَبين للخلق أمامهم، وإقرارهم بذلك، من خلال تواصل خلق نسل الإنسان، واستمراره. بما لا يدع مجالاً للشك بأن من استطاع بدأ الخلق فإنه يعيده. ثم يبسط سبحانه وتعالى اثبات قدرته في ملكوته بتقرير الرجوع إليه ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بعد الفناء، وبحرف الترتيب ﴿ثُمَّ﴾ الذي أفاد التتالي والتعاقب، بأنه بعد البعث والنشور، يكون الرجوع إليه عَزَّ وجل، للحساب والقضاء، والجزاء، كل بما كسب رهين.

ثم يبين سبحانه وتعالى بما سيكون عليه حال المكذبين يوم القيامة، ورؤية أهوالها، والقضاء والحساب والجزاء ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فحين قيام يوم القيامة ﴿يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ يخنع المجرمون الذين أجرموا بكفرهم وطغيانهم. والإبلاس هو: الخنوع. أي: خضوع وخنوع ممن انقطعت حجته، فتلبس بالحزن من سوء الحال، مع اليأس من عودة الخير بعد نزول البلاء، فكلمة مبلس تفيد بيان حالة اليائس من النجاة من العذاب، ومن عودة الخير، وانقطاع الرجاء، مع شدة الحسرة، وشديد الحزن. قال الزجاج رحمه الله تعالى: المبلس: الساكت المنقطع في حجته، الذي أيس أن يهتدي إليها[1] فاجتمعت عليهم تلك الحالات بسبب كفرهم وتماديهم في صد رسالة الله تعالى إليهم مع أنبيائه. فإن من أشد العقوبات أن يجتمع في العقوبة: الأخذ على غرة، والأخذ أثناء الاستغراق في النعيم. مما يفيد أن العطاء والمنع له حكمة بالغة، فالكيس الموفق هو من وفقه الله تعالى لمعرفة حال المنع وحال العطاء، مع حال العمل والطاعة له سبحانه وتعالى.

ويُظهِرُ اللهُ تعالى ويكشف للمشركين حالهم مع شركائهم يوم القيامة، بما يكشف لهم الحقيقة التي سيكونون عليها قبل ذلك اليوم ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ فيوم القيامة يفقد المشركون شركاءهم الذين أشركوهم زوراً وبهتاناً مع الله تعالى، بعبادتهم من دون الله عَزَّ وجل ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ فليس لهم من شركائهم من يشفع لهم، ويجيرونهم مما سينالهم من العذاب ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ وعند ذلك الموقف يوم القيامة يجحد المشركون آلهتهم التي جعلوها في الدنيا شركاء لله تعالى بزعمهم وافترائهم وبهتانهم. وهذا الكشف عما سيكون

(1) الشوكاني، فتح القدير (٢١٨/٤)

عليه حال المشركين يدلل على رحمة الله تعالى بالناس إذ يخبرهم بالحقائق القادمة كيف تكون قبل أن تكون، بما يحذرهم مما هم فيه من الشرك، فيستوجب منهم الطاعة والامتثال لرب العالمين، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون إلا بما تستهويه أنفسهم.

ويخبر الله تعالى بالمزيد مما سيكون يوم القيامة، بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ ويوم القيامة ينفرد المؤمنون عن الكافرين، فيسير ويصير المؤمنون إلى الجنة، والكافرون إلى النار ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ فالذين صدقوا بما جاء به المرسلين، وآمنوا، وعملوا بما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عما نهى عنه ﴿فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ فإنهم في رياض الجنة يتنعمون، مسرورون بما هم فيه من النعيم. والروضة هي: المكان المخضر من الأرض، وإنما خص الروضة، لأنها كانت أعجب الأشياء إلى العرب. وقال المفسرون: والمراد بالروضة: رياض الجنة، وفي معنى يحبرون: يُكرمون، وقيل: يُنَعَّمُون، وقيل: يفرحون[1] فهي تجمع الفرح والسرور بما أكرمهم الله تعالى به من النعيم الذي لا وصيف له من أمور الدنيا، فليس له مثيل في الدنيا إلا الاسم والتوصيف لتقريب الصورة إلى الأذهان، فنعيم الجنة فوق الوصف.

ثم يخبر الله تعالى بحال الكفرة يوم القيامة ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ وأما الذين كفروا بالله تعالى ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ وجحدوا حجج وبراهين الله تعالى الدالة على صدق ما جاء به المرسلون. ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ ﴾ ولم يصدقوا بالبعث، والحساب والجزاء والجنة والنار، وكذبوا بذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ فأولئك في العذاب مجموعون، ونازلون فيه، فَيُعَذَّبُون به. بما يفيد: دوام عذابهم الذي لا ينقطع. وهذا تحذير للكفرة من يوم القيامة، بما يفيد أن عليكم تدارك أمركم وشأنكم في الدنيا، حتى لا يحصل لكم ما أخبركم به ربكم جَلَّ في علاه. وهذا الإخبار هو فضل من الله تعالى، لِمَا فيه من التحذير، فإن مَن يحذرك يريد بك الخير.

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٥/٦)

تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

بعد بيان الله تعالى منشأ الخلق والإعادة والرجوع إليه، وما يتعلق بيوم القيامة، يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالعمل الذي يحمدون عاقبته في آخرتهم، وذلك بمداومة ذكره خاصة في مستهل صباحهم ومستهل مسائهم ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ وقد تصدرت الآية الكريمة بحرف الفاء في مطلع كلمة الأمر بالتسبيح ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ﴾ لإفادة الترتيب، باتصال ما بعدها بما قبلها. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: الفاء تقتضي اتصال ما بعدها بما قبلها، أو عطف تفريع على ما قبلها[1] فبعد علمكم بما سبق فسبحوا الله تعالى امتثالاً. والتسبيح هو ذكر الله تعالى بالتنزيه عن كل ما لا يليق بمقام وحدانيته عَزَّ وجل، وربوبيته وألوهيته. وهو الوصف له عَزَّ وجل بصفات الكمال بألسنتكم وأعمالكم. وخص تبارك وتعالى من بين الأوقات في هذه الآية الكريمة وقتين: الأول: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ والوقت الثاني: معطوف على الأول: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أي: وقت الصباح.

وقيل في معنى التسبيح هنا: الصلوات، باعتبارها شاملة للتسبيح، وأنها مشتملة على تنزيه الله تعالى، وإفراده بها، امتثالاً له عَزَّ وجل. فإذا اجتمعت مع الآية التي بعدها، والتي ذُكر فيها الوقت الثالث والرابع: وهو الظهيرة ووقت العشاء، اكتملت أوقات الصلوات على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تبارك وتعالى.

فبعد أن ذكر سبحانه التسبيح وقت المساء والصباح تدرجت الآية الثانية إلى لحمد ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فكما أنه له التسبيح سبحانه وتعالى فإنه كذلك له الحمد على إنعامه المتواصل، وهدايته وتوفيقه ورحمته، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يحمده أهل السماوات وأهل الأرض ويصلون له[2] بل ورد الحمد له عَزَّ وجل في عموم الكون، وهذا من حيث المكان ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ليعم أرجاء الكون، وأما من حيث الوقت فكله وجميعه، وهو تسبيح وحمد لا

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٤٦/٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٦/٦)

ينقطع، وعلى وجه الخصوص العشي والظهيرة، وإضافة إلى ما سبق من المساء والصباح ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فإنه بناء على هذه الأوقات؛ قال المفسرون هي الصلوات الخمس. قيل لابن عباس رضي الله عنهما عن الصوات الخمس في القرآن، قال نعم: فقرأ قوله عَزَّ وجل ﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ قال: صلاة المغرب، والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ أي: قال: صلاة الصبح ﴿وَعَشِيًّا ﴾ قال: صلاة العصر ﴿تُظْهِرُونَ ﴾ قال: صلاة الظهر[1]

وفي وصف الصلاة وتسميتها بالتسبيح، لأنها متضمنة للتسبيح في الركوع والسجود، والتكبير عند الانتقال بين أركانها، والتسبيح والحمد عقب كل صلاة. ومن سعة البيان أنها قد شملت أيضاً عموم التسبيح والحمد. فكما أن التسبيح جزء من أعمال الصلاة وبعدها، فكذلك يفيد شمولية الأوقات، وخاصة الأربع الأوقات المذكورة.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى التسبيح والصلاة، يبين عَزَّ وجل شيئاً من عجائب خلقه، الموجب لما أمر به من التسبيح والعبادة. فَيُظهر ويبين سبحانه وتعالى مظهر من مظاهر قدرته الدالة على البعث بعد الموت ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ يُخرج الله تعالى بقدرته، وعظيم تدبيره الحي من التي ماتت من المخلوقات، وانعدمت منها الحياة ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ كخروج الجنين من النطفة، وخروج الطائر من البيضة، وخروج الشجرة والنبتة من النواة، وخروج النبات الحي من الأرض الميتة. فمن الذي يُخرج الحي من الميت؟ كما هو الطفل يخرج من النطفة، وخروج صغار الحيوان من النطفة، وخروج الزرعة من النواة الجافة التي لا حياة فيها، وخروج الطير من البيضة، وإنبات الزرع من الأرض الميتة، وخروج النبع من الأرض الجافة. أفلا ترون عظيم قدرة ربكم فيما يُخرجه ويظهره من الحياة، بل من أصول قد ماتت فلا حياة فيها. فَيُخرج منها المخلوقات المنتعشة بالحياة. فإن هذا الإخراج يُوجب تعظيمه بتسبيحه وتنزيهه وتكبيره، وحمده، وتهليله بالوحدانية، لِمَا عَرَّفكم به مما ترونه من الإخراج، ودلائله العجيبة العظيمة. فسبحان الله الذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. فتجد بهذا الترتيب والنسق البياني العلاقة التواصلية بين هذه الآية والتي قبلها. فسبحان الله العظيم الذي أظهر أوجه قدرته وإعجازه في كتابه القرآن العظيم.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٤/١٨)

وكذلك من عجائب قدرته، ومظاهر خلقه خروج الميت من الحي، بصورة معاكسة، وتدبير مضاد لما قبله ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ وخروج الميت من الحي، كخروج النطفة الميتة من الإنسان والحيوان الحي، وكخروج البيضة الميتة من الطائر الحي، وكذلك خروج النواة الميتة من ثمرة الشجرة الحية. أليس في هذا ما يتقرر به أن الله تبارك وتعالى على كل شيء قدير؟ وأنه هو المدبر لهذا الكون، بما فيه من الإنس والحيوان والنبات، والكواكب ولأنهار، وغيرها من المخلوقات. فلا يعجزه شيء يريده ويقضيه عَزَّ في علاه. فهو الذي فلق الحبة والنواة اليابسة الميتة، فأخرج الزرع الحي من هذه الحبة والنواة الميتة التي لا حراك لها ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ وكذلك فهو مخرج الميت من الحي ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ وهو الذي أخرج هذه الحبة وهذه النواة الميتة من الشجرة الحية بنموها وإثمارها، ويماثل ذلك خروج الجنين، وهو الإنسان الحي من النطفة الميتة، وخروج النطفة الميتة التي لا نفس فيها من الإنسان الحي، فإن الذي صنع هذا هو الله العلي العظيم. فذلكم الله المحي المميت الذي لا يعجزه بعثكم بعد موتكم، والذي يتوجب عليكم التصديق والإيمان بما وعظكم به. فإنه ربكم الذي يستحق العبادة منكم، والذي يجب أن تُوَحِّدُوه. وهذا يتطلب ويحتاج منكم إيفاء حق التعظيم بالتنزيه وعموم التسبيح وكمال الطاعة لله عَزَّ وجل.

فقد لفت عَزَّ وجل عقولكم وانتباهكم إلى شيء من عجائب صنعه سبحانه وتعالى، فكيف تنصرفون عن هذا الحق الواضح المبين، ولا تصدقون بالبعث بعد الموت. وفي هذا ما يبين ويفيد أن دين الله تعالى حق، وأن منهجه قائم على الحقيقة والإقناع، من خلال إثارة الفكر إلى المحسوسات التي قد يغفل عنها ذهن الإنسان.

ومن دقائق البيان: أن الإخراج ورد بصيغة المضارع المستمر ﴿ يُخْرِجُ ﴾ الذي تفيد استمرار وتعاقب هذا الإخراج العظيم، سواء الحي من الميت، أو الميت من الحي. مما يستدعي ويستوجب ما أمركم به سابقاً من التسبيح والتنزيه والصلاة له عَزَّ وجل، وكمال الطاعة والانقياد. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: فهذا الإخراج والإحياء آية عظيمة على استحقاقه التعظيم، والإفراد بالعبادة، إذ أودع هذا النظام العجيب في الموجودات، فجعل في الشيء الذي لا حياة فيه قوة من الخصائص تجعله ينتج الأشياء الحية المتحركة، ويجعل في الأرض قوى تُخرج الزرع والنبات[١] فسبحان الله العظم.

ثم يخص سبحانه وتعالى الأرض بالإحياء بعد موتها ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فيحي الأرض الجافة الميتة بالزروع والأشجار وبأنواع الإنبات بعد جفافها وموتها ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ وبمثل ذلك تُخرجون من قبوركم، وتُبعثون للعرض والحساب والجزاء. فأين الصعوبة والاستحالة في ذلك؟ وأنتم ترون وتشاهدون

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٤٨/٨)

الحالات المتنوعة والمتجددة والمتكررة من إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي. أليس في هذا ما يقرر لكم كمال قدرة الله تعالى؟ وإثبات البعث بعد الموت.

فهو إعجاز لا يستطيع عليه مخلوق من دون قدرته سبحانه وتعالى. فهو يخرج من الإنسان الحي النطفة التي لا حياة فيها، ومن الأنعام النطفة الميتة، ويخرج من النطفة الميتة المولود حياً. وكذلك تخرج النواة ميتة من النخلة الحية، وتخرج النخلة الحية من النواة الميتة، وكذلك بقية الثمار والأشجار. وكذلك البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيض. أليس في هذا ما يقرر به ربكم أنه سبحانه وتعالى هو المدبر لهذا الكون وما فيه من الأجناس المتعددة: من الإنس والجن والحيوان والنبات والكواكب والأنهار، وغيرها من المخلوقات. وفي هذا ما يبين ويفيد أن دين الله تعالى حق، وأن منهجه قائم على الحقيقة والإقناع، من خلال إثارة الفكر إلى المحسوسات التي قد يغفل عنها الكثير من الناس.

ثم يلفت سبحانه وتعالى عقول العباد إلى أصل خِلقة هذا الإنسان الذي يخاطبه ربه بآياته، رحمة به، وعناية بمسلكه وهدايته للحق والخير، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ ومن مجمل كثرة وتنوع آياته سبحانه وتعالى أن بدأ خلقكم من تراب، وهو خلق آدم أبو البشرية جمعاً من التراب الميت، ثم تكاثر النسل، ثم انتشروا وتوزعوا في الأرض.

وقد بدأ البيان الكريم بلفت الانتباه إلى الإخبار بشيء من آياته ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ فليست هذه جميع آياته، بل شيء منها، فأفاد حرف ﴿ وَمِنْ ﴾ التبعيض، بمعنى من بعض آياته ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فإن بداية خلقكم وأصله كان من التراب الذي لا حياة فيه، كما جاء في المحاورة بين المؤمن والكافر في سورة الكهف ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ ﴾ ثم تكاثر النسل ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ فإذا بكم تنتشرون من كثرتكم في الأرض. أليس في بدأ خلق هذا الإنسان من تراب، ثم يحصل التكاثر والتناسل بهذه النطفة من بني آدم، ثم يتكاثرون حتى أنه من كثرتهم انتشروا في الأرض وتوزعوا. فإنها آية تستثير العقل، وترده إلى الحقيقة التي تُرغمه على الاعتراف والإيمان بأن الله تعالى وحده لا شريك له هو خالقه وخالق الكون كله، ولا رب سواه، ولا شريك له.

ومن دقائق البيان أن حرف ﴿إِذَآ ﴾ أفاد التكاثر المفاجئ الدال على السرعة في التوالد والتكاثر، كما أفادت دلالة ومعنى ﴿تَنتَشِرُونَ ﴾ سرعة تنقلكم في أرجاء الأرض، وتوزعكم فيها، مما يدل على أن الله

تعالى فطر هذا الإنسان على البحث عن أطايب المعاش بالتنقل والترحال في مناكب الأرض، فعرف بفضل الله تعالى السفر، وهيأ له من الرواحل ما يسافر ويتنقل به، ثم ترتب على ذلك التواصل بالتجارة، وتبادل المنافع فيما بينهم.

وتُتَابع آيات السورة المباركة في لفت الانتباه إلى عظيم آيات الله تعالى في الأنفس والكون، وفي الخلق والتدبير والتسخير، بما يستثير العقول والأفكار إلى ما تاهت عنه من عجائب صنع الله تعالى، وكريم إحسانه، وعظيم تدبيره. فيقول الله تعالى فيما يخص آيات العلاقة الزوجية بين الزوجين ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإن من بعض مفردات آيات ربكم المعجزة والدالة على وحدانيته وعظيم قدرته، أن خلق لكم أيها الناس من نفس جنسكم أزواجاً، ليحصل لكم بذلك التزاوج بين الرجل والمرأة، ثم تحصل السكينة والألفة والمحبة والتواد، حيث نشأ هذا التواد بسبب هذا التزاوج. فإن في هذا لآيات وحجج لو تفكرتم بعقولكم في ذلك، وهي دالة على وحدانية وقدرة وعظمة ربكم جَلَّ جلاله.

فبدأت الآية الكريمة بتأكيد أن آية التزاوج وما فيها وما ينتج عنها من السكينة والتواد هي مفردة واحدة من عظيم كثرة آياته عَزَّ وجل التي لو تأملتموها لأدركتم مراد ربكم منكم ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ التي هي نوع واحد من أنواع آيات ربكم الكثيرة والمتنوعة ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فمن آيات ربكم أن خلق لكم من جنسكم ونوعكم، ولم يخلق لكم أزواجاً من جنس ونوع آخر، بل جعل وحدة الجنس أساس في التزاوج. ثم نَظَّمَ سبحانه وتعالى الزواج بشريعته، التي استكملت ضوابطه، وحددت العلاقة في الحقوق والواجبات، بما يحقق النظام الأسري العجيب في التناسل، والتواد والتكاثر، والاستئناس. فهذه آية عظيمة، دالة على أنه الحكيم، وأنه القادر، وأنه اللطيف بعباده جَلَّ جلاله، بما يُوجب عليكم توحيده وطاعته وتسبيحه بتنزيهه عما لا يليق به من الشريك والولد وغيره.

ثم لفت سبحانه وتعالى الانتباه إلى ما يغفل عنه الزوجين. فالأول من ذلك: متعلق بأحد الأهداف من الزواج، وهي الخاصة بالجانب القلبي ﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ فخلق الذكر والأنثى ليحصل الاستئناس بينهما بالزواج ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ والسكون هو: الهدوء والطمأنينة والراحة، فكل واحد منهما سكن وطمأنينة للآخر. ولا يحصل ذلك بين الرجل والمرأة بأي علاقة أخرى غير العلاقة الزوجية، بل لا يكون ذلك إلا بالعلاقة الشرعية. وهذه في حد ذاتها آية عظيمة من الله تعالى. وهذا يستوجب حمد وشكر الله تعالى عليها، وتسبيحه وتنزيهه على هذه الآية الجليلة، والنعمة المسداة تفضلاً منه

ونعمة. مما يستوجب إقامة العشرة الزوجية على مقتضى ما قضى به شرع الله تعالى، ومنها إقامة الواجبات والمسؤوليات وفق شريعة الله تعالى، لينعم كلا الزوجين بهذه النعمة.

والأمر الثاني: هي المودة والرحمة الناتجة من التزاوج ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ فقد جعل الله تعالى بين كل زوجين كان زواجهم وفق شريعة الله تعالى ﴿ مَّوَدَّةً ﴾ وهي: التحاب الذي مبعثه ومنطلقه هو القلب، فينعكس على الجوارح، والتعامل. وعطف على هذه المودة حصول الرحمة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ والرحمة هي الشفقة، واللطف بينهما، فكل واحد منهما يحمل المحبة والشفقة على الآخر. وهذا يزيد من قوة الترابط بينهما، والمعايشة، والصبر على ما يطرأ من مظاهر الاختلاف أحياناً، لأنها أمور طبيعية، ولكن مع ذلك تسيطر عليها المودة والرحمة.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأن ما تم ذكره لكم هي دلائل عظيمة على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وعلى البعث والنشور ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ففي ما تم ذكره لكم، بأن جعل لكم من أنفسكم أزواجاً لتكون سكناً لكم، وجعل بينكم مودة ورحمة ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ جمع آية، ليدل على كثرة ما فيها من الدلائل والحجج والبراهين ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأناس يتأملون، فيتأثرون، فيصدقون فيؤمنون. فمن قوة آياته وكثرتها وتعددها أنها تكفي لأن يعقل بها القوم الكثير، إذ يُقَلِّبُون عقولهم في خلق الله تعالى وتدبيره، فيصدقون ويؤمنون بما تأملوا وتدبروا. لأن من قوة تأثير آياته أن يقبله ويتأثر به الجمع الكثير، وليس أفراداً منه، وذلك لقوة الآيات. مما يفيد أهمية التأمل والتدبر في خلق الله تعالى وتصريفه فإنه من أقوى عوامل الإيمان وزيادته، كما يفيد ذلك أهمية لفت انتباه المتعلم والموعوظ إلى التأمل في ملكوت وخلق الله تعالى وتدبيره، لينصاع للإيمان، وليزداد إيماناً على إيمانه مَن كان مؤمناً.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ

وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثم تستمر الآيات الكريمة في تَوَسُّع البيان من الله تعالى عن لفت أفكار الْمُخَاطَبين إلى المزيد من آياته الباهرات سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴾ ومن بعض آياته عَزَّ وجل العظيمة الباهرة ﴿ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فمن نظر إليها وتأمل ارتفاعها، وتأمل لونها، وتأمل قيامها من غير أعمدة تحملها وثُقِلَّهَا، ورأى نجومها، وكواكبها، وما يجري في العلو من الهواء والرياح والسحاب لأدرك أن هذه العظمة في الخلق دليل على عظمة من خلقها، ولأحدث شأنها عند من تأملها الإيمان بالواحد الديان، وأنه لا إله غيره عَزَّ في علاه، وأنه على كل شيء قدير، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فَصَّلَهُ من أمور المغيبات.

وإذا تأمل المتأمل في الأرض ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وجد فيها ما يبهر العقول من عظيم صُنعه، من الجبال والأودية والسهول والهضاب والأنهار، والبحار، والزروع، وانتشار الحيوانات والدواب فيها، وغيرها من المخلوقات، مع توازن ما صنع، بل ومواءمة ما صنع مع حياة الإنسان وحاجاته، وتسخير ذلك للإنسان، لأيقن بالواحد الديان، وأنه لا أله غيره عَزَّ وجل، وأنه على كل شيء قدير، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فصله من أمور المغيبات. بل من جليل تدبيره أن كل ما الإنسان له أحوج زاد من كثرته، وكل ما قَلَّت حاجة الإنسان إليه كان أقل. فإذا تأمل الإنسان الهواء وجده في كل مكان، لا يستطيع أن يحجبه أحد عن أحد، لأنه من قوام حياة الإنسان، وبعده الماء، والمزروعات، ومن تأمل المعادن كالذهب وجده أقل وجوداً من النبات لأن حاجة الإنسان له محدودة. فإن مَن تدبر تلك العلاقة آمن واستسلم لله تعالى، وانقاد له بالتوحيد، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن كان مؤمناً ازداد إيماناً على إيمانه. مما يبين أن التدبر في الكون عموماً غاية في الأهمية، وأن من واجبات التعليم للمتعلم هو لفت الانتباه لذلك. بما يزيد من الإيمان، وقوة التفكير، والارتقاء بالتحليل.

ثم تنتقل الآية الكريمة في تدرج متناسق عجيب إلى آية شأن لسان الإنسان الناطق بالحروف والكلمات، بل في تنوع عجيب من اللغات واللهجات، وتعددها وتنوعها، وتباينها بدرجة من التفاوت والاختلاف الدقيق العجيب ﴿ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ ﴾ فمن آياته سبحانه وتعالى أن عَلَّم بني آدم النطق والكلام،

والتعبير باللسان، وبلغات متعددة ومختلفة، وجعل عند الإنسان قدرة على أن يتعلم لغة غيره، فإن في ذلك آية عظيمة وكافية، فكيف إذا انظمت إلى تلك الآية اللسانية العظيمة في التفاوت الدقيق في الألوان ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ فهناك من البشر الأبيض، والأسود، والأحمر، ومن هو بين تلك الألوان بدرجات متفاوتة لا يحصي عدد تباينها ودقة درجاتها إلا الله سبحانه وتعالى. بل ليس للأبوين حق في اختيار درجة اللون، حتى إنك لتجد الأبناء في تفاوت دقيق عجيب في درجات ألوانهم بالرغم من اتحاد أبويهم. فلا بد من خالق قدر هذا، متجاوزاً بذلك إرادة الأبوين في ألوان أولادهم، وأطوالهم، وملامحهم، وغير ذلك من الاختلاف. فمن تأملها آمن بالواحد الأحد سبحانه وتعالى، وأنه الله، لا إله غيره، وأنه على كل شيء قدير، وأنه عظيم في خلقه وتدبيره، وتصريفه، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فَصَّلَه من أمور المغيبات. ولأطاع وامتثل لأوامر ربه ونواهيه.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أن في هذه الآيات المذكورة لعبرة لكل ذي علم وفهم وبصيرة أيها الناس ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ فإن فيما ذكر من الآيات لَعِبَر ودلائل لعباده الذين يعقلون ويفهمون فيعلمون ويتعلمون، وقد شملت ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ جميع الناس، البر والفاجر. فإنها آيات مؤثرة لتصحيح فهم الناس أجمعين، على اختلافهم. فالمقصود بالعالمين: الذين يرون الآيات فيتعلمون منها، ولا يتجاهلونها. مما ينبه إلى أهمية التأمل والتعلم، كما أن في ذلك دليل على أن التأمل يُوَلِّد المعرفة للبر والفاجر. وأنه يرتقي بعقل وفكر الإنسان من كل وجه، وأعلاه تحقق الإيمان في نفسه، ومتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان الكريم أن دلالة ﴿ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ شملت تعدد الناس على اختلافهم، وشملت المتصفين بالعلم. قال جلال الدين في تفسير الجلالين: أي: ذوي العقول، وأولي العلم[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: للبر والفاجر[٢] فاستوفت فصائل الناس وتعددهم، واستوفت أولي العلم والعقول من جميع أجناس العالم البشري. وهذا من بلاغة البيان في استيعابه للمقصد والمراد بأقل تراكيب الكلام. ليظهر الإعجاز في البيان كما ظهر الإعجاز في الخلق والتدبير. فسبحان الله العظيم.

ويتوسع ويستمر لفت الانتباه إلى الإعجاز الرباني في أحوال الإنسان التي يعيشها ما بقي وعاش في الحياة. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى

(١) جلال الدين، تفسير الجلالين (٤٠٦)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٣/١٤)

ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾ ومن عديد آياته سبحانه وتعالى الكثيرة العظيمة ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ خلودكم للنوم بالليل وبالنهار، وانقطاعكم عن الحياة تماماً، ثم عودة الحياة إليكم، وعودتكم إلى التعامل والتفاعل معها. وبمثل منامكم ثم حياتكم بعد نومكم هو كذلك حادث موتكم ثم بعثكم وعودة الحياة إليكم، فالذي أماتكم بالنوم، وأعاد إليكم الحياة، هو الذي يميتكم ويفنيكم من الحياة، ثم يبعثكم مرة أخرى. فإن إحياءكم وبعثكم مرة أخرى بعد موتكم أمر غير مُعجز له سبحانه وتعالى، كما أنه لم يعجزه إحياءكم بعد نومك. فأين الصعوبة، وأين مواقع الامتناع؟ فالذي أماتكم حتى أن النائم منكم لا يدري عما كان يدور بجانبه، ثم أيقظكم من نومكم، هو كذلك يماثل من فقد الحياة ثم يبعثه الله تعالى مرة أخرى، فيعيد الله تعالى له الحياة كما أعادها لمن استيقظ بعد نومه. فإن ذلك لآية عظيمة للبعث بعد الموت لمن أراد أن يسمع ويتأمل ويتفكر فيؤمن. وقد ذكر الله تعالى النوم بالليل والنهار لحصوله من العباد كأساس في الليل، وحصوله في النهار لما يحدث من نوم القيلولة، وغيرها فيمن لم ينم بالليل لأسباب مختلفة بين الناس، كالسفر ليلاً، أو لمن كان صنعته أو عمله ليلاً، وغير ذلك. فاستوعبت نوم الليل الرئيس، ونوم النهار الإضافي أو البديل.

وكذلك من آياته العظيمة فيكم أيها الناس هو ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ فجميعكم يسعى لطلب الرزق، والتكثر منه، فإن ذلك آية لو تأمل فيها الإنسان، فلم يجعلكم كالبهائم، تأكل مما تجد على الأرض، بل جعل فيكم عامل الابتغاء ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم ﴾ وهو الطلب الحثيث، والبناء والتشييد والتطوير، فهي ميزة عن غيركم من المخلوقات، تبين اختلافكم عن غيركم من المخلوقات، والذي هو آية عظيمة. كما أن هذا الابتغاء متمحور في ﴿فَضۡلِهِۦٓ ﴾ سبحانه وتعالى، فواءم بحكمته وعظيم تدبيره بين حاجتكم وبين فضله وما تبتغون وتطلبون، فمن الذي واءم بين حاجة الطالب وتوفر المطلوب؟ أليس هو الذي خلقكم؟ ثم أورد تبارك وتعالى طلب الفضل بالتبعيض ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ فالذي تطلبونه هو شيء من فضله العظيم، الذي لا تستطيعون احتواءه، فهو كثير وعظيم، ومتنوع ومتعدد، وهو يكفيكم على كثرتكم وتنوع مبتغاكم. فمن دبر هذا بهذه الحكمة والموازنة؟ أليس هو الله تعالى، خالقكم، وخالق الفضل. وقد نسب سبحانه وتعالى ما يطلبونه إليه ﴿مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾ فالفضل الذي تطلبونه هو له عَزَّ وجل، مُلكاً وخَلْقاً، وعطاء من غير ثمن. ولم يأمركم بما يُثقلكم، بل أمركم بعبادته وطاعته وفق ما جاءكم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل سبحانه وتعالى بعباده إلى تحضيضهم ودفعهم إلى الاستفادة مما خاطبهم به، وبينه لهم، فقال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴾ فإن هذا البيان مما أوضحناه لكم من الآيات لعبرة وموعظة ودروساً لقوم يسمعون كلام ربهم الاستماع الذي يعقلون به، ويفهمون الفهم الذي يتحقق به التعقل،

فيصدقون ويؤمنون. فإنها والله لآيات واعظة غاية الوعظ وأكمله وأتمه. مما يبين أن في التأمل دروساً عظيمة لمن أراد الصواب والحق والخير. فإن الحمد لله سبحانه وتعالى على عظيم بيانه وتوفيقه عَزَّ وجل. وأن من الواجب إثارة التفكر والتأمل في الكون، ليتحقق للناس الإيمان والطاعة والامتثال.

ثم يتدرج لفت الانتباه لنوع آخر من الآيات العظيمة، وهي آية نزول الغيث، وإحياء الأرض بما نَزَّلَ تبارك وتعالى عليها من الماء بعد موتها، فيقول تباك وتعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وإن من بعض آيات ربكم، ودلائل قدرته سبحانه وتعالى العظيمة ما ترونه من حدوث البرق ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾ يُريكم البرق بقوة المعاينة البصرية، لضوئه المهيب المخيف، ومع ذلك يحدث عند من يراه حادثتان نفسيتان وقويتان، ولهما هيبة جليلة وعظيمة: الأولى: الخوف ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا ﴾ خوفاً في القلوب من قوته ورهبته، وخوفاً مما قد يتبع ذلك من الصواعق. والحالة الثانية: الطمع ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ والطمع متعلق فيما يتبع قوة البرق وما يليه من الغيث، ونزول الماء من السماء، وهي مثار ترقب للخير. وهما قوتان قلبيتان متظافرتان ومتضادتان في وقت واحد، من الخوف والرجاء. فإنها آية عظيمة وجليلة. وفي ذلك إشارة إلى التوازن في العبودية القائمة على الخوف والرجاء، خوفاً من عقاب الله تعالى، ورجاء لرحمته وكرمه، كما ورد في سورة السجدة ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وما ورد في سورة الأعراف ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ لبيان عاملي الخوف والطمع في العبودية.

ثم يبين سبحانه وتعالى ما يعقب هذا الخوف والطمع من نزول المطر ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ فبعد هذه الحالة النفسية يُنَزِّل ربكم عليكم من السماء، أي: من العلو ماء، وهو المطر ﴿ فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ فتنشأ وتدب الحياة في الأرض بظهور الأعشاب والزروع المختلفة، فتصبح مخضرة بالحياة والانتعاش؛ بعد أن كانت جافة ميتة لا حياة فيها. فإنها آية في البعث والنشور بعد موت الإنسان، فهي حالة مماثلة لما سيكون من حال عودة الحياة للإنسان بعد وفاته وهلاكه،

فالذي بقدرته أحيا الأرض بعد موتها، فإنه بقدرته يحي الإنسان بعد موته ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإن في هذه الآيات لعبرة وموعظة وبيان للقوم، وللناس الذين يُعمِلُون عقولهم بالتفكر والتأمل، والقياس بما يرون على ما لا يرون من البعث بعد الموت. وهذا من دلائل قدرته على كل شيء سبحانه وتعالى. مما يبين أن منهج الإسلام في تعليمه ودعوته ومواعظه وعبره قائم على الحقائق التي لا يزيغ عنها إلا معاند ومكابر، فَيُهلِك نفسه بالكفر والطغيان والعصيان.

وهي آية متعلقة بعدد من الحواس، إذ تثيرها جميعاً في وقت واحد، وهذا من عجائب ودلائل قدرة الله تعالى. فهناك حاسة النظر، بما تراه من البرق، فيستثيرها، وما يتبعه من الرعد، فتتشنف الآذان عند سماعه، مع هيبة وخوف، بما يثير قوة القلب، بين الخوف والرجاء والطمع، وما يتبع ذلك من سرور القلب بما يرى من الغيث، وما ترى العين من نزول الماء من السماء، وما تستطيبه الآذان من سماع سقوط حبات المطر، وما يكون من الماء على الأرض، وما تترقبه وتأمله من حياة الأرض به بعد جفافها. فإنها آيات متعددة يكشفها الله تعالى لعباده، ليتعظوا بها، فيقروا بوحدانية ربهم وألوهيته وربوبيته عَزَّ في علاه. فيسبحوه ويشكروه ويطيعوه بعمل الصالحات.

ثم يتدرج البيان الرباني بعد استعراض عدد من الآيات المبهرات لينتقل إلى النتيجة والمحصلة التقريرية بأن الله تعالى يدعوكم بعد فنائكم فإذا أنتم تخرجون من القبور أحياء ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فبدأ سبحانه وتعالى تقرير المحصلة والنتيجة ابتداء من استعراض شيئاً من آياته عَزَّ وجل السابقة، بأن قيام الكون المتمثل في السماء والأرض هو بأمره وسلطانه عَزَّ وجل ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ فإن من دلائل قدرته تبارك وتعالى قيام الأرض والسماء، ونشأتها وثباتها بأمره، وبالتالي فهي آية من آياته العديدة والكثيرة والعظيمة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ﴾ والقيام هو أن تدوما السماء والأرض قائمتين، فنشأتها وقيامها وتماسكها في استقرار وثبات هو بأمره سبحانه وتعالى، من غير أعمدة، ولا حامل يحملها، فهما قائمتان ثابتتان بأمره كما شاء وأمر جَلَّ جلاله. فإن هذا من دلائل عظيم تدبيره في خلقه، مما يبين ويؤكد لكم أنه لا شيء عسير ولا مستحيل على ربكم الله سبحانه وتعالى. لينتقل بعده البيان لقضية البعث.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان المحصلة والنتيجة التي يجب أن تستقر في عقول وقلوب العباد، وهي: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فكما أقام السماء والأرض بأمره، فإنه يقيمكم من قبوركم، فإذا أنتم قائمون أحياء، كما أقام بقوته وقدرته وسلطانه السماء والأرض عَزَّ وجل. فأين المانع الذي

تتخيلونه؟ فبعد انتهاء آجالكم وموتكم ومكوثكم في القبور، فإنه إذا دعاكم ربكم دعوة واحدة حصل خروجكم فجأة وبسرعة من القبور من غير تأخر ولا تلبث ولا تمهل. فكما أن السماء والأرض على سعتهما وقوتهما وثقلهما قائمتان من غير عمد، لمجرد أمره بذلك، فكذلك أنتم أيها الناس، بمجرد دعوتكم ﴿إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ وحرف ﴿إِذَآ﴾ يفيد المفاجأة والسرعة العظيمة التي بمجرد الدعوة تحصل الإجابة والامتثال، من غير تلبث ولا تأخير، ولو كان قدراً يسيراً، ليبين ربنا تبارك وتعالى كمال قدرته، وسهولة بعثكم، فإنه ليس بالشيء المعجز على من خلقكم وخلق الكون كله بأمره. وأقام السماوات والأرض.

ثم بعد أن استعرض سبحانه وتعالى شيئاً من بعض آياته الجليلة، وأوضح بما لا يدع مجالاً للشك أن بعد الموت بعثاً ونشوراً وحساباً وجزاءً، يخبر الله تعالى بأن الملك كله له وحده لا شريك له، وأن الجميع مُنقاد وخاضع لأمره جَلَّ جلاله ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ فإن جميع المخلوقات هي ملك له سبحانه وتعالى، فله السماوات وما فيها، والأرض وما عليها، فجميعهم مُلك له عَزَّ في علاه، وخلق منه تبارك وتعالى، وله سبحانه وتعالى كمال التصريف والتدبير كيف يشاء جَلَّ جلاله، وقد حصر عَزَّ وجل الملك له بلام التخصيص ﴿وَلَهُۥ﴾ وبإضافة ﴿مَن﴾ التي أكدت وبينت الحصر لجميع ما ذكره أنه لله تعالى، بما يُبطل وينفي من ادَّعَى الشريك لله تعالى. ثم أكد ذلك ببيان كمال الخنوع والخضوع له عَزَّ في علاه ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي: مُطِيعون ومُنقادون وخاضعون لجلاله وكمال سلطانه عَزَّ في علاه. وفي هذا تعميم لكمال ملكه وسلطانه وقهره ومشيئته سبحانه وتعالى، ومن قوة البيان أن أوصل إليه عباده بتدرج تعليمي غاية في الإبداع، وقوة الأسلوب، وإثارة العقول والأفئدة لما أخبر به سبحانه وتعالى.

ثم يقرر تبارك وتعالى ويبين انفراده بإنشاء الخلق، ويؤكد لعباده به على إعادة الخلق، ورجوعهم إليه للحساب والقضاء والجزاء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ انطلقت الآية الكريمة ببدء الخلق، بأنه له سبحانه وتعالى منفرداً به عَزَّ وجل، لا شريك له ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ فهو لا غيره يبدأ الخلق والتكوين لما خلق ويخلق. بل أفاد قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي﴾ حصر فعل الخلق له تبارك وتعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ فإنه له وحده لا شريك له، فليس لغيره له فيه إرادة أو فعل. وورد البدء بصيغة الفعل المضارع ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ ليفيد ما خلق، وكذلك الاستمرار في الخلق، والإحداث والتجديد فيما ترون من المخلوقات الحادثة

في الكون، من استمرار خلق الإنسان والحيوان والنبات، وتجدد الليل والنهار، والشمس والقمر، وغير ذلك من خلقه، والدالة على أن الذي يخلق هو الذي بدأ الخلق، وهو الذي خلق من كان قبلكم، وأماتهم كما سيميتكم. فهي دلائل ظاهرة على إبطال الشريك، وإثبات وحدانية الله تعالى. وهو استدلال لا يسع أحد أن ينكره، لينتقل البيان إلى إعادة الخلق بعد إفنائهم.

ثم يزداد بسط دلائل انفراده سبحانه وتعالى بتدبير شأن ملكه عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ أي: ثم يعيد خلقه بعد إفنائه، وأورد سبحانه وتعالى الإعادة بحرف الترتيب ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد التتالي والتتابع. كما ذكر البيان إعادة الخلق من دون ذكر الإفناء في هذه الآية الكريمة، وذلك من بلاغة البيان، لأن الإعادة كائنة بعد الإفناء، فأغنت الإعادة عن التنصيص عليها. فأثبت سبحانه وتعالى الإعادة بدلالة بدأ الخلق، ومشاهدة الْمُخَاطَبين للخلق أمامهم، وأقربه هو تواصل خلق نسل الإنسان، واستمراره. بما لا يدع مجالاً للشك بأن من استطاع بدأ الخلق أن يعيده. وبما يفيد تقرير الرجوع إليه بعد الفناء، بتعاقب وتتالي، وأنه بعد البعث والنشور، يكون الرجوع إليه عَزَّ وجل، للحساب والقضاء، والجزاء، كل بما كسب رهين.

ثم يبين عَزَّ وجل أن الخلق والإعادة أمر ليس فيه صعوبة، وذلك بتقرير اليسر له، بل أكد تبارك وتعالى أن الإعادة أهون ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ فالإعادة أهون، وتدل كلمة ﴿ أَهْوَنُ ﴾ على أن الخلق كان هيناً، والإعادة التي أنتم تستصعبونها فهي ﴿ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ سبحانه وتعالى، لإفادة المبالغة في سهولة ما يستصعبه ويستبعده الجاحدون المكذبون، فالذي في تقديركم أصعب هو في تقدير الله تعالى أهون، فكلا الأمرين هين على سبحانه وتعالى، فلا يُعجزه شيء أبداً.

ثم يُظهر الله تعالى هيبته وجلاله من أن يتجرأ أحد على تشبيهه بغيره من خلقه، في قدرته وصفاته سبحانه وتعالى ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فله سبحانه وتعالى الوصف الأعلى والأكمل الذي لا يدانيه ولا يماثله شيء أبداً، مما يفيد: أن لا تقارنوا صفات الله تعالى وقدرته وسلطانه بغيره من مخلوقاته فتُهْلِكُون أنفسكم بالفكر القاصر، والتصور الناقص، والمناقض لعزة الله تعالى وقدرته. فإن لربكم ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فالوصف الأكمل والأتم في السموات والأرض له وحده لا شريك له، فلا يشاركه فيه أحد من خلقه، فهو المتفرد في أسمائه وصفاته، لأنه ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فالعزيز هو: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ أي:

الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. ليعطي عبده وغيره أدب البدء، وأخلاق الخطاب، ومنهج التعريف.

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم في التعليم عموماً، وفي تعليم المشركين إلى خطأ وفداحة شركهم وبطلانه، من خلال ضرب المثل العظيم الذي يُقرِّب لهم حقيقة التوحيد بحقيقة نفيهم مشاركة عبيدهم فيما هو لهم من أملاك وأموال ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يوضح الله سبحانه وتعالى للمشركين بطلان شركهم بمثل يكشف به لهم، أنهم يُرَكِّبُون الشرك بما يتنافى مع أصل الحق والحقيقة، فيبدأ البيان بمدخل يحثهم فيه على التأمل، فجملة ﴿ ضَرَبَ لَكُم ﴾ تشد الانتباه للمتابعة، وكونه ﴿ مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يزيد به عامل التشويق وشد الانتباه، والحرص على متابعة تفاصيل المثل المضروب لهم من أنفسهم ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فإن ربكم يُظهر لكم بمثل هو من عين حقائق وأحوال ذواتكم وأنفسكم ﴿ مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ التي هي أقرب ظهوراً لكم، وأقرب ظهوراً لإظهار الحق من خلالها. وفي ابتداء الكلام بقوله تعالى. ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ تدليل على معايشة الْمُخَاطَبين لحقائق المثل الذي يضربه لهم سبحانه وتعالى.

وضرب المثل هو تقريب الصورة للحقيقة ورسمها في الأذهان من خلال حقيقة يعرفونها، ويقطعون بحقيقتها، لمعرفتهم التامة بها. وضرب المثل في القرآن الكريم يعطي الصورة المماثلة للحقيقة، مما يبين أهمية ضرب الأمثال في المواعظ والتعليم والإرشاد، فإنها مما يقرب المعنى والحال والصورة إلى الذهن، وليس هناك أبدع من أمثال كتاب الله تعالى، في ألفاظه ومعانيه، وبلاغته، وأثر دلالاته، وقوة مخاطبته للعقل، وإثارة الحس والنفس نحو دلالاته ومعانيه، وفي أهدافه وغاياته. اللهم انفعنا بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

ويبدأ بيان ضرب المثل بسؤال تقريري لحقيقة ما هم عليه، وهو يحمل كذلك إنكار وتوبيخ لمخالفتهم دلائل المثل المضروب لهم ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فهل لكم مما تملكون من العبيد والإيماء من يشاركم منهم في أرزاقكم التي رزقناكم إياها؟ ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أي: ﴿فَأَنتُمْ﴾ وهم ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أنتم وهم سواء في هذا الرزق الذي رزقناكم. فيماثلونكم بمشاركتكم فيه، فإنه لا أحد يرضى منكم بأن يكون عبده شريكاً وقسيماً له في شيء مما يملك. فكيف تجعلون عبيد الله تعالى شركاء له؟ بل وكذلك هل ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فهل أنتم بهذا تخافونهم أن يشاركوكم ويقاسموكم أموالكم كما يخاف الشريك الحر شريكه الحر الذي مثله، فيخاف منه بأن ينفرد عنه بجميع المال، أو أن يغشه في الشراكة؟ أو أن ينفرد بأمر أو شأن دونه. فهل تخافونهم أن يقاسوكم أموالكم كما يقاسم الشريك شريكه؟ أسئلة وحقائق مهمة، وواقعية من حال أنفسهم، والمثل يتطلب الإجابة، والتي تنحصر في جواب واحد، بأنهم عبيد تحت سلطتنا، وإماء نملكهم تحت ولايتنا، فلا يمكن لهم أن يكونوا شركاء فيما نملك، ولا يمكن أن نخافهم، بل هم الذين يخافون سلطاننا عليهم. بل إنهم مُلك مما نملك. فليسوا قسماء فيما نملك، وليس لهم الحق في ذلك، ولا نخافهم كما نخاف أنفسنا في شراكتنا مع غيرنا، إذاً فكيف تجعلون عبيد الله تعالى شركاء له؟ أترضونه لخالقكم ولا ترضونه لأنفسكم. فإنه مثل عظيم يقررهم بالحقيقة التي يعيشونها.

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: هل ترضون لأنفسكم والحال أن عبيدكم وإماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الأموال، ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فتخافون الأحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الأموال، وجواز التصرف، والمقصود نفي الأشياء الثلاثة: الشركة بينهم وبين المملوكين، والاستواء معهم، وخوفهم إياهم[1]

بل وأيضاً سيحمل جوابهم الاستنكار من أن يكون هذا الشأن من عبيدهم وإيمائهم فيما يملكون. وهو: كيف يكون عبيدنا شركاء لنا؟ فإنه لا يصح عقلاً، ولا واقعاً؟ فإذاً كيف تجعلون من عبيد الله تعالى

(١) الشوكاني، فتح القدير (٤/٢٢٠)

شركاء له وهم ملُك له عَزَّ في علاه؟ كيف يكونون شركاء ويخاف الشريك من عبيده أن يقاسموه ما يملكه؟ كيف تنفون عن أنفسكم الشريك فيما رزقناكم؟ وتُقرُّونه لربكم؟ كيف هذا؟ إلجام معضل لهم. وحقيقة يكشفها المثل المضروب بكل قوة ووضوح. مما يعلم المؤمن كيف يبني المثل في التعليم، وكيف يقيم الحجة، ويظهر الحق. فإن ضرب الأمثال في القرآن مدرسة للتعليم.

ثم يبين الله تعالى الهدف والغاية من ضرب الأمثال، بما يُعَلِّم الْمُخَاطَب أن ضرب المثل له غاية، فيجب أن يفهم هذه الغاية ويعقلها ويحققها ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فبمثل هذا المثل نفصل ونبين ونُظهر الحجج الباهرة الكاشفة للحق وللحقائق ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لقوم وأناس يدركون الدلالة للمثل المضروب لهم، والذي يضعهم أمام الحق، فيعقلونه فيستجيبون. بما يفيد إن كنتم أهل عقول سليمة، وتريدون الحق، فقد كشفنا لكم الحقيقة التي تُبطل الشرك من أساسه، وإن كنتم لا تريدون التعقل فذلك شأنكم.

فإن الغاية من ضرب الأمثال للناس هو ليحققوا بها في أنفسهم ما تتجلى به الحقيقة التي تُوصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، والكفر بالشرك، والإيمان بتوحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة، وفق ما شرع، وبينه رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فمنزلة الأمثال التي يضربها الله تعالى للناس أنها تُجَلِّي الحقيقة، وتزيل عن الحق ما عتموه في عقولهم، من خلال مفهوم الأمثال المضروبة للناس، وما تُوصلهم إليه تلك الأمثال من الحقائق والمعاني في أدق بيان، وأوضح صورة، فيتعظوا ويعتبروا بها. لأن في ضرب الأمثال ما يقرب الحقيقة والمعاني في أدق صورة لها. مما يفيد أهمية الاتعاظ مما يرى ويشاهد الإنسان من آيات الله تعالى. فقد ضرب الله تعالى لعباده الأمثال المتنوعة في القرآن الكريم، حتى قامت الحجة والبراهين منه عَزَّ وجل لعباده. فعلى الإنسان أن يحذر في دينه من ذلك اليوم، الذي تشخص فيه الأبصار من أهواله، يوم القيامة.

ومن روائع ودقائق البيان أن أسند الله تعالى ضرب المثل له من غير أن يُظهر اسمه جَلَّ جلاله ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وذلك لشد الانتباه للمضروب، وإحلال المقصود وهو المثل مكانه لإبرازه وإظهاره، وقَدَّم عليه المضروب لهم المثل ﴿ لَكُم ﴾ على المثل. وهذا من براعة البيان، وتحقيق مقاصده، وإشغال الذهن به، وإثارة اهتمام المخاطبين به عن غيره. فيزداد بهذا الأسلوب تألقاً وإثارة واهتماماً. ومن الفوائد: أن الشراكة مشوبة بالخوف، والاختلاف، وهذا لا يليق بالله تعالى، وبملكه وعظيم سلطانه عَزَّ في علاه. فلو كان هناك شريك لَمَا كان هذا النسق الدقيق في خلق الله تعالى، لاختلاف الشركاء فيما بينهم، فسبحانه وتعالى عما يشركون علواً كبيراً.

ثم يتدرج البيان من الله تعالى إلى تأكيد وتقرير الخلل بأنه نابع عند المشركين من اتباعهم لأهوائهم، من غير دليل ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يقرر الله تبارك وتعالى أن الذين أشركوا به عَزَّ وجل كان بسبب اتباعهم لأهوائهم من غير دليل وحجة. وبدأ البيان العظيم في كشف علل شركهم باتباعهم أهواءهم بغير علم. إذ دلَّ حرف ﴿بَلِ﴾ على عدم اتعاظهم بما تم بيانه، وما أورده سبحانه وتعالى من الآيات المتتالية التي تبين وتُظهر الحق. كما أن حرف ﴿بَلِ﴾ يُثبت ما بعده من حقائق البيان، بعد أن نفى تحصيلهم لما قبله من الوعظ والعلم والبيان والحجج والبراهين ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ﴾ بل اتبع هؤلاء المتصفين بالظلم، الذي هو الشرك، وما معه وصاحبه من مفردات الكفر المتعددة، أنهم اتبعوا أهواءهم وأفكارهم الزائفة والفاسدة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ من غير دليل متحقق بعلم، فنفى عن منهج شركهم أي علم وحقيقة يبنون عليها شركهم. وبالتالي قد انتفى عنهم العلم، وقبول العلم والعمل به. فيكون سبب ذلك الشرك هو اتباع الهوى عن قصد، وكبرياء وتكبر على الحق، وعلى من جاءهم بالحق، وهو رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم.

فإذا كان هذا هو حالهم مع ما جاءهم من ربهم من العلم ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فمن هو الذي يستطيع أن يهدي من تجاهل توجيهات وهدي ربه له. بعد أن عاقبهم الله تعالى بأن أضلهم بسبب اتباعهم الهوى، فختم لهم بالضلالة، نتيجة عنادهم. وورد الجواب باستحالة أن يهديهم أحد من الخلق بعد أن امتنعوا عن هداية الله سبحانه وتعالى، فليس هناك بيان أفضل وأوضح بياناً وحجة مما جاءهم من الله تعالى. ثم يأتي التأكيد منه عَزَّ وجل ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فليس لهم ناصر ينصرهم من عذاب الله تعالى الذي أوقعوا أنفسهم فيه.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأنه طالما أن أمرهم كذلك من الصد، فلا تلتفت إليهم، ولا تهتم بإعراضهم وصدودهم، وأقم الدين، وسر به عملاً ودعوة ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيأمر الله تعالى رسوله، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام، بأن يقيم على ما هو عليه من الدين ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾ فانصب واستمر واثبت، وأقم توجهك واتجاهك أيها النبي ومن معك من المؤمنين ﴿حَنِيفٗا﴾ مستقيماً لدينه وطاعته. غير مائل عن دين الله تعالى إلى ما يخالفه،

بل كن ثابتاً ومن معك على دين الله الحق. وفي ذلك تزكية وبيان لشريعة الله تعالى، بأنها قائمة على التوحيد والكمال، والطاعة لله تعالى، والصبر والشكر.

ومن دقائق البيان استخدام الوجه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ للتعبير عن الاتجاه، والاهتمام، والإقبال، فالوجه هو المعبر عن التوجه، وعن الإدبار وعن جهة التوجه، وعن الاستقامة، وعن نوع الاهتمام بما أقبل عليه الوجه، وبما يشتغل به، وبما يفيد عدم الالتفات لمن صد وأعرض وتولى. فاتجه أيها النبي ومن معك لشأن إقامة الدين. فكان توضيحاً بقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ كان أجمل وأقوى توضيحاً في اختياره دون غيره. كما أن الأمر بالإقامة ﴿ فَأَقِمْ ﴾ تعطي دلالة القيام بالأمر من جميع الأوجه، ومن جميع ما يتعلق به، فإذا كان المأمور به متعلق بالوجه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ فإنه يعني: أعط الدين كل اهتمامك وتوجهك، وأعرض عن الجاهلين. فأعطت دلالة إقامة الوجه: الانتباه، والاهتمام. وقد أوقع أمر إقامة الوجه على شأن الدين ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ الذي هو المحور والمرتكز، وهو الذي بُعثت به، ومن أجله، ثم أُلحق بالدين صفته ونوعه ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي: مستقيماً، وهي الصفة الموضحة للدين ولإقامته، بأنك تقيم ديناً متصف بالحنيفة البعيدة عن الشرك، والمعبرة عن الاستقامة، التي تفيد بُعدَهَا عن الباطل، وقيامها على الحق المستقيم، الذي لا عِوج فيه. وأن مضمون الدين قائم على الاستقامة، وأنه يحقق في أتباعه السلامة والاستقامة. فمفردات كلام الله تعالى غاية في بلاغة البيان والمقصد، والمضمون، ومعناً وجمالاً وهدفاً وغاية.

ثم يوضح ويبين تبارك وتعالى بأن ما أمرناك به من الدين فهو ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ فهو يمثل فطرة الله تعالى، وهو الإسلام. فمعنى ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ أي: الإسلام. قال مجاهد رحمه الله تعالى: الإسلام[1] قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: الفطرة: الخلقة التي خُلق عليها البشر[2] ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ والتي يبينها قوله صلى الله عليه وسلم (كل مولود يُولد على الفطرة)[3] أي: على الإسلام. بما يفيد ويبين أن الإنسان قد ولد، وهو مفطور على الإسلام، دون تفاصيله، فقلبه وميوله لمنهج هذا الدين، فيجد في أوامره ونواهيه وتشريعه ما يطمئن إليه قلبه. ولذلك ورد في تكملة الحديث تأثير غيره عليه

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٣/١٨)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٦)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٤٢٤/١) برقم (١٣٨٥)

(فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه) بما يبين أن تأثير غيره عليه هو أمر حادث طارئ، ومخالف لِمَا فُطر عليه المولود، من تأثير الوالدين، وممن يحيطون به، ويتعايش معهم. كما قال الله تعالى عن بلقيس ملكة سبأ في سورة النمل ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ فلما عرفت الحق أسلمت مع سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ فإذا عرف الإسلام أقبل عليه ما لم يكن هواه وشهواته قد سيطرت عليه، فلا يريد مفارقتها لغلبة هواه وشهواته عليه.

ثم ينهى الله تبارك وتعالى عن تغيير ما خلق الله تعالى عليه الإنسان من الفطرة، وأنه عَزَّ وجل لا يغيرها، بل باقية كما فطرها ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ فهو تقرير بأن جميع جنس الإنسان على الفطرة، وبالتالي النهي عن التغيير، وبالتالي هو إخبار من وجه، ونهي من وجه آخر، لا تغيروا خلق الله تعالى عن فطرتهم التي فطرهم عَزَّ وجل عليها، فلا تبدلوا دين الله تعالى. وكذلك أن ربكم لا يغيرها، بل إنها باقية كما فطرها. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: تعليل لما قبلها، من الأمر بلزوم الفطرة، أي: هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه وتعالى، وقيل هو نفي، معناه: النهي، أي: لا تبدلوا خلق الله[1] وفي هذين المفهومين ما يبين غزارة دلالة النص الكريم، الذي جمع ما بين التقرير، وما بين النهي، ببيان واحد، للدلالة على إعجازه البياني الكريم.

ثم يُثني ويمدح ويزكي سبحانه وتعالى دينه الحنيق بقوله عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ ذلك المذكور بما وُصِف به هو الدين المستقيم في التوحيد والتشريع، والحقوق والواجبات والأحكام والآداب والأخلاق، وجميع ما تضمنه. ثم يبين مكمن المشكلة البشرية بأنها من عدم تحقيق العلم والتعلم من هذا الدين ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولكن أكثر الناس بإعراضهم واستكبارهم وميلهم لشهواتهم، وسماع كلام غيرهم ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الحق الذي فيه، فلو استمعوا له، وعلموا ما فيه لقبلوه، فإن علة كثرة من لم يؤمن به متعلقة بذواتهم، من عدم معرفتهم له، والعلم بحقائقه. وفي هذا رد للشبهة التي قد ترد عن كثرة الكفار، وقلة المؤمنين، بالرغم من الفطرة التي فُطر الناس عليها، فنفى العلة والسبب عن الدين، وحصرها في جهل من لم يؤمن بهذا الدين الحنيف، وهو حقيقة سبب كفرهم.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٢٤/٤)

ثم يُلحق الله تبارك وتعالى ما أمر به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من إقامة وجهه للدين حنيفاً، بتوصيف الإقامة للدين، فقال عَزَّ وجل ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: مخلصين ومتقين مع كمال أداء الصلاة، ونبذ الشرك والبعد عنه. فجمع الخطاب التوجيهي هنا الجميع، إذ ورد بصيغة الجمع لجميع مفردات المطالب. وفيه ثلاثة أوامر، ونهي واحد، فالأول: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي: مخلصين، ملازمين للطاعة، ومطيعين له في أوامره سبحانه وتعالى. قال الزجاج رحمه الله تعالى: زعم جميع النحويين أن معنى هذا: فأقيموا وجوهكم منيبين، لأن مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم تدخل معه فيها الأمة، ومعنى ﴿مُنِيبِينَ ﴾ راجعين إليه في كل أمر، فلا يخرجون عن شيء من أمره[1] مما يفيد وجوب المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

والأمر الثاني: متعلق بالتقوى ﴿وَٱتَّقُوهُ ﴾ أي: مراقبة ومخافة ربكم المحققة لكمال الطاعة واجتناب المعصية. فالتقوى هي قوة في القلب، مملوءة بالرغبة فيما عنده سبحانه وتعالى من عظيم العطاء، وبالخوف منه عَزَّ وجل، باستشعار عظمته وهيبته، والخوف من عقابه، لتجعل الاستقامة في المتقين سجية لهم في كل أمر وشأن.

والأمر الثالث متعلق بالصلاة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وذلك بأداء الصلاة وفق ما شرع لكم ربكم، وورد الأمر لها بفعل الإقامة ﴿وَأَقِيمُواْ ﴾ التي تجمع جميع ما تقوم عليه الصلاة، من الأركان والواجبات والمستحبات، بما يفيد الإقامة الخالية من الخلل. فلا تُخلوا بها، بل أقيموها إقامة ذات عناية واهتمام. مما يبين أهمية الصلاة، إذ كثيراً ما يقترن الأمر بها في القرآن بالإقامة. اللهم اجعلنا مقيمين للصلاة على الوجه الذي يرضيك عنا.

والأمر الرابع: هو أمر نهي ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إياكم أن تكون من فئة المشركين بالله ربكم سبحانه وتعالى. بل يجب أن تكونوا من الموحدين له عَزَّ وجل، والمخلصين له في طاعتكم وعبادتكم، فلا تريدون بها سواه، لينتفي بذلك حتى الرياء والسمعة. فهذه ثلاث أوامر مع نهي واحد، أفادت أهمية شأن ما أمركم الله تعالى به، وما نهاكم عنه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥١/٦)

ثم يبين الله تعالى حال من تفرقوا عن دينه الذي جاء به الأنبياء، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ فالآية عامة في كل من فارق دين الله تعالى، وتشتت فيه، وكان مخالفاً له. والتفريق الذي هو ﴿ فَرَّقُواْ ﴾ يفيد التشتيت، والتقسيم، بالتبديل والتغيير، والإيمان ببعض والتجاهل والإنكار لبعض. والمفارقة له، ولبعضه، فينتج عن ذلك التفريق ولادة ونشأت الأحزاب ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ وسماهم سبحانه وتعالى ﴿ شِيَعًا ﴾ لبيان أن كل فرقة تكونت من أفراد، ويُشايع أفرادها بعضهم بعضا، بالمناصرة والتأييد، وادعاء كل فريق أنهم أصحاب الحق. وفي هذا كشف لما سيكون عليه كل من أحدث في الدين حدثاً بالتغيير والتبديل والإضافة والحذف، فإنه قد فارق الحق، ونأى عنه، وأصبح دينه هواه. وأن العلاج لكل من فارق الدين بالتحزب أن يرجع لأصل الدين، فهو الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، وأنه موقع الاعتصام، كما يفيد هذا الحذر من الأهواء والبدع، وتزيين الشيطان لها.

فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق، فَشَرْعُه واحد، لا اختلاف ولا افتراق فيه، ولكن هناك من فرقوا هذا الدين فجعلوه مِللاً وفِرقاً ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ أي: جعلوه فِرقاً، كأهل الملل والنحل، والأهواء والضلالات، فإن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بريؤون مما هم فيه أهل البدع والنحل. فالصراط المستقيم واحد، وهو ما جاءت به الرسل بعبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة خاتم الأنبياء والمرسلين كما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

ثم يخبر الله تعالى بالحد والنهاية التي يصلون إليها ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ فكل حزب مسرور بما هو عليه من المفارقات للأصل. فهو بيان يوضح به سبحانه وتعالى مشاعر كل فرقة بما هي فيه وعليه مما خالفت فيه غيرها ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ فكل فرقة حزبية مسرورة ومعجبة بما هي عليه. وكلمة ﴿ حِزۡبِۭ ﴾ تدل على المجموعة التي ترابطت على أمرها، وتوافقت عليه، مما يدل على شدة افتراقهم عن الأصل الذي كان وحدة لهم. فتماسكت كل فرقة فيما بينها على ما افترقت فيه، ويعضدهم الفرح والتباهي بما هم عليه.

وقد أثبت البيان الكريم تساوي الفرق والأحزاب التي تمزقت عن أصل الوحدة في شدة الفرح على ما هم عليه من التمزق والفُرْقَة ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ وبالتالي نفى تفاوت مقدار الفرح بين تلك الأحزاب التي تمزقت عن الأصل، بما يفيد أن كل فرقة معجبة بذاتها أشد الإعجاب، وترى أنها تملك الحق وحدها، وغيرها على باطل مجزوم به في نظرها، وفي حكمها على غيرها، مما يدل على قوة التباعد بعد الوحدة

التي كانوا فيها وعليها ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فجملة ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ تدل على الجميع ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما هم عليه من الرأي المخالف والمفارق للأصل ﴿فَرِحُونَ﴾ أي: مسرورون به. والفرح يدل على شدة الاغتباط والسرور، وبما يفيد كمال الرضا عن أمرهم الذي افترقوا به عن الأصل، بما لا يدفعهم إلى الحوار مع غيرهم فيما هم عليه من الرأي والخلاف. وفي هذا تحليل دقيق من رب العالمين لشأن الافتراق، مما يفيد التحذير منه، والحذر من المشاعر التي يشعرون بها. فإنها ليست على حق، وعليهم مراجعة أنفسهم على أصل الدين. بما يفيد الحذر من أسباب الفرقة والتحزب، ومن الوقوع فيه.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يوضح ويخبر الله عَزَّ وجل بأحوال الناس مع ربهم تبارك وتعالى حال ما يصيبهم الفزع من الضر، وحال ما يصيبهم الوسع والرخاء ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فإذا مس الإنسان الضر أثناء مسيرة حياته اتجه إلى ربه تبارك وتعالى بالدعاء والإنابة والإخلاص في ذلك، فيعقدون رجاءهم في الله تعالى وحده لا شريك له، ويتركون ما يدعون من دونه عَزَّ وجل. فأوقفهم تبارك وتعالى على حقيقتهم، وحقيقة شركهم في الرخاء، وحقيقة توحيدهم لله تعالى في الشدائد.

فبدأ النص الكريم بإيقافهم على حالهم في الشدائد ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ والمس هو الالتصاق، الذي يفيد المباشرة والاصطحاب، والتي تعني التصاق الضر بأحوال الإنسان التصاقاً يعايشه ولا يفارقه حال وجود الضر. وينتج بتزامن الإصابة الملامسة للقلوب التي هي محل الإحساس والتفاعل، وذلك لما يصيب الناس من الهلع والخوف مما يجدون ويتوقعون من عواقب الضر ونتائجه. وأما الضر فهو كل ما يتضرر به الإنسان، قال الزمخشري رحمه الله تعالى عن معنى الضر: الشدة من هزال، أو مرض، أو قحط، أو غير ذلك[1] وما

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣/٤٧٧)

يكون في المال والولد والمعيشة، والخسارة في التجارة وما يماثل ذلك. ومن دقة البيان تعميم الضر، ليشمل جميع أنواع البلاء، ودرجات شدته.

ومن إثارة النفس نحو بيان حالها أن ورد البيان على وجه التعميم لجنس الإنسان ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ لبيان المبالغة باعتبار أكثر الناس هم الكافرون. فعند حصول الضر يتجه الإنسان بكل حواسه، وبجميع ذاته إلى ربه تبارك وتعالى ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ فحين يصيب الناس شيء من الضر يتجهون إلى ربهم في إخلاص من الدعاء، الذي لا يخالطه غيره، لإدراكهم أنه لا يزيل الضر إلا الله سبحانه وتعالى، وأنه الواحد الأحد القادر على محوه وإزالته، وإزالة حتى أثره. بل ومن مبالغتهم في إخلاص الدعاء أنهم يدعون وهم ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ إي: مقبلين إلى ربهم. والإنابة هي: الرجوع إلى الله تعالى والإقبال إليه بالدعاء في صورة واضحة وجلية من الإخلاص والتضرع. وفي تلك اللحظة يذهب عن القلوب وعن الخواطر جميع من كانوا يدعونهم من دون الله تعالى، فلا يعزمون في الدعاء والالتجاء إلا على الله عَزَّ وجل، فكان حاضراً في قلوبهم وقت شدة الضر.

وفي ذلك إيقاف الإنسان على الحقيقة، فلماذا يا أيها الإنسان لا تستنجد بربك وتُخْلِص له سبحانه وتعالى إلا عند حلول الكرب؟ بينما أنت في حال الرخاء لا تخلص له في العبادة، بل تدعو من دونه شركاء مزعومين باطلين. ليبين للكافر والمشرك وغير المخلص، واللاهي حقيقة التوحيد التي فُطِر عليها، ويصحح له المذهب والاتجاه الفكري، بإعادته إلى الحقيقة الفطرية. ولتظهر لهم حقيقة أنفسهم، وحقارة ما كانوا عليه قبل الضر. وهذا يدل على أن منهج الله تعالى قائم على الحقائق، وأن الدعوة الإسلامية مبنية على الوضوح والحق. وأن دين الله تعالى واضح لا لبس ولا خفاء فيه. وكذلك أهمية المحاجة بالحق، وأن الأدلة الشرعية كافية في بيان الحق، وأهمية أسلوب الحوار والتحليل، لإعادة الإنسان إلى حقيقته، وليكتشف بنفسه ما هو عليه من الخطأ والخطر. كما يستفيد المؤمن من هذا البيان الكريم أن يحرص على أن يكون ملجأه هو الله تعالى في السراء والضراء، ثم الأخذ بالأسباب.

ثم يبين تبارك وتعالى انطماس فكر الناس عن الصواب الذي أدركوه عند مصابهم بالضر، وذلك بعودتهم إلى الضلال بعد أن سلمهم الله تعالى وفَرَّجَ عنهم الضر والكرب الذي مسهم وأحاط بهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فلما أنجاهم من هول ما كانوا فيه من الضر، وأبَلَّغَهم من رحمته ما يحبون ويتمنون من الخير والسلامة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فإذا برفيق ممن كانوا يتضرعون ويخلصون، فإذا بهم يتغيرون ويرجعون إلى الشرك، والإعراض عن إفراد الله تعالى بالوحدانية في الربوبية والألوهية والعبودية، وتركوا الإخلاص الذي بذلوه حال مسهم الضر، فعادوا ورجعوا إلى شركهم من

دون الله تعالى، وأصبحوا يرجون ما يعبدون من دونه جَلَّ جلاله، فنكصوا على أعقابهم. مما يبين عمق ظلم الإنسان لنفسه.

ووردت الرحمة هنا عامة ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً ﴾ لتقابل عمومية الضر ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ لتقابل الرحمة جميع أنواع وأصناف مفردات الضر، فكل ضر تقابله رحمة تزيله وتحل محله. وهذا والله من دقائق البيان وإعجازه المتناهي. كما أن الرحمة، تشمل جميع التفضل من الخير، فجميع الخير هو رحمة من الله تعالى بالناس جميعاً. ومن دقائق البيان كذلك أن الله تعالى نسب الرحمة له عَزَّ وجل ﴿ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً ﴾ فنسب سبحانه وتعالى الرحمة منه تفضلاً وامتناناً، بينما الضر لم يذكر فاعله الذي جعله يمس الإنسان ويلاصقه ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ لأن الضر غالباً أسبابه الإنسان، فهو الذي يُلحق بنفسه الضر، بما يرتكبه من المعاصي. كما أن في تغييب فاعله ليشمل جميع أسبابه ودواعيه المختلفة، فيستوعب كل سبب ومشيئة من الله تعالى، وكذلك لإظهاره وإبرازه دون إشغال الذهن بفاعله وأسبابه.

وبدأ التغيير والتحويل من الضر إلى الرحمة بحرف الترتيب ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد الترتيب والتعاقب والتغيير من حال إلى حال، كما أفادت ﴿ إِذَآ ﴾ الشرط الذي حصل به الشرك ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ بينما بينت ﴿ إِذَا ﴾ الثانية سرعة المفاجأة في التحول ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ لتفيد سرعة عودتهم إلى الشرك، وبصورة مفاجئة وسريعة، وكأنه لم يحصل لهم ومنهم ما قد حصل. وتفيد كذلك ﴿ إِذَا ﴾ التعجب من حال الذين عادوا إلى الشرك بعد أن كانوا منيبين إلى الله تعالى وحده لا شريك له بالدعاء والاستغاثة. فإنه أمر يدعو إلى غاية التعجب من شأنهم. إذ بعد اليأس والتضرع إلى الله تبارك وتعالى، فإذا بهم يعودون لما كاوان عليه من الشرك. فيبطرون ثم يذهبون إلى ما كانوا عليه من الشرك، فيعودون إلى مَن لا يدفع عنهم ضراً، ولا يُقدم لهم نفعاً. وفي هذا بيان لرحمة الله تعالى، وكريم تعامله، وعظيم عطفه عَزَّ وجل. ودليل على تعسف الإنسان بنفسه، وظلمه لذاته، مع الإصرار على ذلك.

وحصرت دلالة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم ﴾ أنه ليس ذلك في كل الناس، بل في طائفة منهم، ليدل على أن هناك من تأثر واتعظ بما أصابهم من الضر، فعدلوا إلى الحق والصواب. وهناك من تمادى ولم يتعظ، ليتبين الفرق بين تجاوب الناس مع الحق، حتى في ممارستهم له، ووقوعه بهم، ومشاهدته ومعاينته، والتعامل معه.

فيعودون إلى الشرك ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وكأنه لم يحصل منهم الإخلاص لربهم سبحانه وتعالى. وفي جملة ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ مدح للفريق الذي ثبت على الحق، ولم يماثل الفريق الذي انحرف.

ومن دقائق البيان أن ورد وصف الإصابة بالرحمة بدلالة كلمة الذوق ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ بينما وصف سبحانه وتعالى الإصابة بالضر بدلالة المس. ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ فالذوق فيه استطعام وتلذذ، إذ يحصل به ذلك عند أطايب الأشياء، بينما المس ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ يفيد شدة ملاصقة ومماسة الضر للحال من كل وجه. ففي التباين في توصيف حدوث الحال دقة بلاغية متناهية إلى درجة الإعجاز في البيان، والتصوير للأمر وبلاغة السياق. فسبحان من أظهر أعجزه حتى في كلامه لعباده، كما أظهره في خلقه وتدبيره لِمَا خلق.

مما يبين أن الإنسان كثير النكران والجحود للنعم. وهو أمر يثير التعجب من حال هذا الإنسان الذي يجحد نِعَم الْمُنْعِم، بل يبالغ في كفره بالله تعال إلى درجة أنه يدعو ويرجو غير الله عَزَّ وجل الذي أنعم عليه وَخَلَّصَه مما كان فيه من الكرب، وذلك لشدة طغيانه في الكفر، بعودته إلى الشرك وبتلك السرعة المفاجئة، التي تفيد المبالغة، إلا الذين وفقهم الله تعالى إلى الهداية، فآمنوا واهتدوا إلى صراط الله المستقيم. وفي هذا البيان من الله تعالى ما يفيد التنبيه والتحذير من هذا الْخُلُق الذميم، الذي اتصف به الإنسان، وكل بحسب ما فيه من هذه الخصلة الذميمة. التي تكون منه مع خالقه تبارك وتعالى، وكذلك قد تكون مع غيره من الناس، فتظهر في حاله مع من أحسن وتفضل إليه من الناس. فكثير من الناس من يتناسى فضائل من تفضل عليه من البشر. وكثيراً ما يعصي العبد ربَّه تبارك وتعالى، والذي أنعم عليه بنعمه التي لا تُعد، وإحسانه الذي لا يُحد، فيتغافل عنها وهو يعيش بها وفي ظلالها.

ومثال ذلك ما ورد أيضاً في سورة العنكبوت، من قوله عَزَّ وجل ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فعند ركوبهم السفن لتحملهم وتنقلهم إلى مرادهم، يدعون ويرجون الله وحده لا شريك له. فحالهم في مراكبهم من السفن إذا أصابهم الله تعالى بالرياح والأمواج العاتية، وخافوا الغرق والموت ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فتجردوا من معبوداتهم من الأصنام وغيرها من كل معبود من دون الله عَزَّ وجل، فتوجهوا بالدعاء الخالص إلى الله تعالى، دون أن يشركوا معه جَلَّ جلاله أحداً من معبوداتهم. ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فبعد أن نجاهم تبارك وتعالى

من أمواج وهيجان البحر، وأوصلهم إلى البر فإذا بهم يعودون إلى الشرك، ويتركون من كانوا إليه يجأرون بالدعاء الخالص له سبحانه وتعالى.

ثم يبين تبارك وتعالى علة وسبب إخلاصهم لله تعالى وقت الشدائد وكفرهم في الرخاء ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فتحولهم من الإخلاص وقت الشدائد إلى الشرك وقت الرخاء هو ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ أي: لينكروا نعمة كشف الضر عنهم. وللام للتعليل، ذكر القرطبي رحمه الله تعالى: أن اللام في ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ هي بمعنى: كي، أي: لكي يكفروا، ولكي يتمتعوا. وقيل: ليكون ثمرة شركهم أن يجحدوا نعم الله تعالى، ويتمتعوا بالدنيا[١] فاللام هي لبيان وتعليل أن سبب تحولهم بعد الإخلاص إلى الكفر هو ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ فأشركوا من أجل أن ينكروا ما آتاهم الله تعالى من نعمة رفع وكشف الضر عنهم، وإنما نجاتهم كانت بسبب ما اتخذوا من الأسباب. فيتظاهرون ويتفاخرون بما ليس لهم أمام غيرهم. وورد الإيتاء عاماً ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ ليشمل ويعم جميع حالات النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فينسبونها لمعبوداتهم من غير الله تعالى، وإلى قدراتهم ومهاراتهم، حتى يتكبروا ويستعلوا بها على غيرهم، ويحافظوا بها على أتباعهم، وتحصيل الوجاهة بينهم.

ولها وجه آخر على اعتبار أن اللام في قوله تعالى ﴿ لِيَكْفُرُواْ ﴾ هو لام الأمر. ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أن هذا لام الأمر، ومعناه التهديد والوعيد. والمعنى: ليجحدوا نعمة الله في إنجائه إياهم[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى على معنى أنها لام الأمر: معناه التهديد والوعيد، أي: اكفروا بما أعطيناكم من النعمة والنجاة من البحر، وتمتعوا[٣] والمعنيان متظافران، بما يستوفي بهما كمال المراد من دلالة النص الكريم، فكلا المعنيين مرادين، فاكفروا بما أنعمنا عليكم من النجاة ليتحقق فيكم العذاب، وبمعنى أن سبب عودتهم إلى لشرك من أجل أن يبرروا لأنفسهم التمتع بما هم عليه من المفاسد، والجاه، وقيادة الناس، وإبقاء الأتباع. فاستوفى براعة السياق الوجهين المقصودين. مما يدل على الإعجاز البياني في تراكيب ألفاظ الآية الكريمة، لتعطي تلك المعاني الدقيقة.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤١/١٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٩/٦)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٤١/١٣)

والسبب الآخر في عودتهم للشرك هو من أجل التمتع والتلذذ، والذي بينه سبحانه وتعالى بأسلوب الإغراء التحذيري ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ الذي يفيد التحذير لهم من بغيهم، ومما هم عليه من الشرك بعد توالي الآيات والنعم عليهم ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ فانتفعوا بما أنعمنا عليكم أيها المشركون ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فسوف يحصل لكم العلم التام بعاقبة كفران النعمة، وجحود شكرها، وما أصَرّيتُم عليه من العناد على مبتغاكم من الشرك. فسوف تعلمون عندما يعاقبكم الله تعالى بعذابه. وهذا الأسلوب غاية في التهديد الرباني لمن أنكر النعمة ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مما يبين أن الله تعالى لا يسارع للعبد بالعقوبة، وأن الله تعالى يريد لعباده الخير، ولا يريد لهم العذاب، فيمهلهم، لعلهم يرشدون ويتوبون، ولكن بعض العباد يتعامل مع النعمة معاملة الجحود بها.

فهو توجيه يحمل دلالة التهديد لهم بأن يتلذذوا بما آتاهم الله تعالى بالطريقة التي يريدونها، وليست بالمنهج الذي يريده الله تعالى، فإنهم يريدون الاستمرار فيما هم عليه من الاستمتاع بالفجور، فيتصرفون كما يريدون من الحرية المطلقة دون قيود وضوابط للدين عليهم. وهو توجيه لهم بالتمتع على سبيل الوعيد والتوبيخ، أي: اكفروا؛ فإنكم سوف تعلمون ماذا تلقون من عذاب الله تعالى بكفركم. أي: بعاقبة كفرهم.

ثم يذكر سبحانه وتعالى إنكاره عليهم بأسلوب الاستفهام عما إذا كان عندهم حجة يعتمدون عليها في إشراكهم بالله تعالى، فتجعلهم يصرون إصرار من عِندَهُ حجة ظاهرة بينة، بما يفيد مبالغتهم في اعتماد الشرك ديناً لهم ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ وهو سؤال توبيخ وتعجيز، يطرحه سبحانه وتعالى ليكشف به عن مبالغتهم في التمسك بالشرك، وكأنما الله تعالى أنزل عليهم حجة تؤيد ما هم عليه من الشرك ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أم أنهم يَدَّعون بأن الله تعالى أنزل عليهم ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجة وبرهاناً ساطعاً وقاطعاً يقررهم على شركهم ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ يأمرهم بالشرك، وينطق بصحته، وصحة كفرهم بالله تعالى، وبرسوله وكتابه القرآن العظيم. فهو سؤال استنكار، يفيد النفي والإنكار، من أن الأمر ليس كذلك. ليفيد تعييرهم والتهوين من شأنهم، وشأن عقولهم، مع التهكم بهم على قوة إصرارهم على الشرك بالرغم من قوة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من بينات وحجج الحق، ففي هذا إظهار لقوة عنادهم في تمسكهم بالشرك، ولكأن مبالغتهم في تمسكهم بالشرك مبنية على حجة وبرهان أنزله الله تعالى عليهم، فتؤيدهم بتلك البينات على شركهم. والأمر ليس كذلك، بما يفيد كشف عنادهم وإصرارهم واستكبارهم على الحق بأنه من باب الاستكبار والعناد.

ثم يزداد تفصيل وبيان الله تعالى لحال الإنسان، وتحليل سلوكه عند نزول الرحمة به، وعند حصول المصيبة به، بما قدم من المعصية. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ

سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴾ فحين نتفضل على الإنسان برحمة من عندنا، يصيبه الفرح، وإذا أصابته مصيبة بسبب ما قدم واجترح من السيئات والمعاصي، فإنه ييأس من أن يعود إليه الفضل من رحمة الله تعالى. وورد البيان بأسلوب مملوء بالفوائد العظيمة الجليلة. إذ يبين ويكشف حال الإنسان وحقيقته، بما يعلمه بنوع وحجم الخطأ الذي يقع فيه ويعايشه، ليتنبه لشأنه وما يكون من حاله، وليصحح فهمه ومسلكه عند حصول النعمة، وعند حصول المصيبة أو النقمة، وأن يفهم عللها وأسبابها، وكيف يتعامل معها.

فورد البيان عاماً لجنس الإنسان ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ ﴾ وهو على الغالب من الناس، ليفيد الكثرة والمبالغة التي وصل إليها الغالب من الناس، باستثناء من وفقه الله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً ﴾ والرحمة هنا جامعة لجميع أنواع الخير، من الخصب والرزق، كالمال والأولاد، والزرع، وحصول المرابح، والصحة في الأبدان، والسلامة من الأمراض، وغيرها من مفردات الرحمة التي لا يحصيها أحد ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ استأنسوا، وانشرحت سرائرهم بها، وجرهم وقادهم ذلك إلى البطر والأشر. قال المفسرون: هذا الفرح المذكور ها هنا، هو فرح البطر الذي لا شكر فيه[1] ويشمل الفرح: التباهي بقدرات النفس، ومهاراتها في اكتساب ما تحقق لها من الخير، ولا يعزوها لفضل الله تعالى. بعكس حال المؤمن، الذي إذا أصابه الله تعالى برحمة، شكره عليها، ونسبها إلى ربه الذي منحه النعمة، وتفضل عليه بها، واستخدمها في طاعة الله تعالى، وأبعدها عما يُغضب الله عَزَّ وجل.

وفي هذا البيان من الله تعالى ما يستثير الوقوف عند دلالات هذا النص المبارك، فأولها قوله تعالى ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ ﴾ والتي بينت وأوضحت أن التدبير والتقدير له عَزَّ وجل، فقد نسب ذلك له عَزَّ وجل ﴿ أَذَقۡنَا ﴾ فهو الذي أغدق على هذا الإنسان برحمته وحكمته وقدرته، بل وجعله يتذوق ما أعطاه، بما يكشف ويبين حجم النعمة في تعاظمها وكثرتها، وسعة بسطها، حتى كان استشعاره لها هو استشعار المتذوق لها، لأن أدق حالات الاستشعار هي حاسة الذوق، فجاء الوصف لها بأدق الحواس. ومن جليل الفوائد وعظيم البيان في الآية الكريمة، أن الله تعالى نسب إعطاء الرحمة إليه ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً ﴾ فالذي يذقهم الرحمة هو الله تعالى.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦/١٥٢)

وورد بيان إعطائها بكلمة ﴿أَذَقْنَا﴾ التي هي أشد حواس الاستشعار عند الإنسان. فأدق حالات الاستشعار عند الإنسان هي حاسة الذوق، فجاء الوصف بها، لبيان عظيم وقدر الرحمة بأقوى وأدق الحواس شعوراً عند الإنسان. ثم سمى الله تعالى نعمته رحمة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ وكذلك نسب الرحمة المعطاة للعبد أنها له عَزَّ وجل، فهو سبحانه وتعالى الذي أذاقها العبد، ليتأكد أن الذي أعطى هذا الإنسان هو الله تعالى، وأنه أعطاه من ملكه، وسماها رحمة، لأنها إحسان وإنعام وإفضال على العبد بلا مقابل.

ومن مزيد الفوائد بيان وإيضاح الفرح الممقوت: فإن الأصل في الفرح أنه مباح، ولكن الفرح الذي يحيد فيه صاحبه عن الجادة والصواب والحق، ويأخذ فيه مأخذ الأشر والبطر. وينقله من السرور الطبيعي، إلى السرور الذي اختلط به ومازجه الفخر والخيلاء والبطر، فإن هذا الفرح ممقوت. حتى أن قوم قارون نصحوه ونهوه عن ذلك، وقالوا له بما قاله الله تعالى عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ فالذي لا يحبه الله تعالى هو الفرح المنحرف بما مازجه من التعاظم والتباهي والتفاخر، مما يفيد الانتباه والحذر من الفرح الممزوج بالخيلاء والاستكبار، والأشر والبطر. والذي هو انشداد إقبال القلب إلى الشيء بالوجه الذي ينتج ويتمخض عنه التعلق القلبي والتولع به، ثم الانكباب عليه، فينسى حقوق الذي أعطاه وأكرمه به سبحانه وتعالى، ثم يرى أنه بقوته الشخصية وقدرته الذاتية تَحَصَّلَ عليه، ثم يفاخر به غيره، ويتعالى به على الناس بقلبه ولسانه وفعله. وقد ورد في الحديث بأن الله تعالى يفرح بتوبة العبد، قال صلى الله عليه وسلم (لله أشد فرحاً بتوبة عبده، من الرجل براحلته)[1] أي: فرح العبد براحلته التي ضاعت منه فوجدها. وفي هذا إثبات الفرح للعبد، وأنه ليس محل ذم. لأن فرحه ليس فيه بطر ولا أشر، بل السرور بحصوله على راحلته. وهذا من رحمته عَزَّ وجل بعباده، ومحبته للمتقين. وإثبات أن فرح العبد بالنعمة من غير بطر ولا أشر، فإنه لا شيء فيه.

والحالة الثانية، هي: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ أن تلحق بهم شدة من نقص في الأموال، أو الأولاد، أو قحط وجفاف، أو مرض وبلاء، أو غير ذلك من مصائب الدنيا يحصل القنوط منهم، مع العلم أن هذا الذي أصابهم هو بسبب منهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فكان الْمُصَاب عقوبة من الله تعالى لهم، بسبب ما أسلفوا من المعاصي، والانحراف والبعد عن طاعة الله تعالى والامتثال له. فهنا تكون حالتهم هي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ييأسون من أن يُفَرِّجُ اللهُ تعالى ما حل بهم ووقعوا فيه، فيرون أنهم باقون في ذلك ما بقيت الحياة، فلا أمل عندهم البتة، وهذا اليأس والقنوط والتذمر هو نتيجة معتقدهم وحالهم الفاسد. بسبب عدم معرفتهم بدين الله

(١) مسلم، صحيح مسلم (٤/٢١٠٤) برقم (٢٧٤٦)

تعالى، الذي يبين أن الله سبحانه قد يعاقب، وقد يبتلي بالخير، وبالشدائد، وأنه لا يأس مع قدرة الله تعالى ورحمته التي يغير بها الشأن من المصيبة والمحنة إلى المنحة والعطاء والخير.

بل من شدة جهلهم وقنوطهم هو سرعة دخول اليأس إليهم، حيث ورد وصف دخول اليأس إليهم بحرف ﴿إِذَا﴾ الفجائية، التي تفيد أنهم فجأة حصل لهم القنوط بمجرد إصابتهم بالسيئة، فالتزامن بين الإصابة بالسيئة، وبين قنوطهم هو فقط وقوع المصيبة بهم، بما يدل على عدم إدراكهم لأي شيء من دلالات الابتلاء، ودلالات رحمة الله تعالى بالعباد، فكم من إنسان تحل به الخسارة ثم يربح، وكم من إنسان يمرض، ثم يعافيه الله تعالى. ومن ذلك ما ورد في مطلع هذه السورة، من هزيمة الروم، ثم انتصارهم بعد هزيمتهم في بضع سنين، فإنهم سيستعيدون النصر بعد الهزيمة في المدة التي ذكرها وحددها الله عَزَّ وجل.

وقد تقدم ورود إصابتهم بالسيئة بحرف الشرط ﴿وَإِن﴾ أي: في حال إصابتهم ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ويعفو الله تعالى عن الكثير والكثير. كما أن الإصابة بالمصيبة ليست منفصلة عن السبب، وهو بما قدمت أيديهم من الذنوب والمعاصي العظيمة. وفي كونه فعل مضارع مستمر ﴿تُصِبْهُمْ﴾ يدل على تعاقب المصائب بين حين وآخر، بحسب ما قدمت أيديهم، لعلهم يرجعون لربهم.

ثم يعالج الله تعالى معتقدهم وحالهم وفهمهم الفاسد بسؤال اعتبار وتفكر في تصريف الله تعالى للأرزاق بين بني آدم بحكمته، التي إذا تأملها الإنسان أيقن بأن الله تعالى حكيم في تدبيره وتصريفه، بما يستوجب من العبد التعامل مع ما يصيبه من خير ورحمة أو ما يستاء منه وفق مراد الله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيحضضهم عَزَّ وجل إلى التأمل في حكمته تبارك وتعالى التي تكشف للإنسان خطأ القنوط، وخطأ الفرح الذي يقود إلى البطر.

فيبدأ البيان بلفت الانتباه من خلال سؤال استنكار من عدم التأمل في حكمته مع عباده في بسط الرزق وتقديره. فإن الله تعالى يوسع الرزق على من يشاء من عباده، ويُضيق على من يشاء بحكمته. بما يفيد أن التوسعة ليست دليلاً على أنه الأخير والأفضل، أو أن محبة الله تعالى متحققة له، فإنه ليس هناك ارتباط بين كثرة العطاء وبين المحبة، وبالتالي ليس هناك ارتباط بين قلة الرزق وبين بغض الله تعالى. بل يبسطه بحكمته ومشيئته. وفي نفس الوقت يكون الرزق بقدر محدد ومُقَدَّر ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء من عباده، ولا يعني ذلك بغضه لمن قَدَرَ عليه رزقه، بل قد يكون عند الله تعالى المحظوظ بالإنعام يوم القيامة. ومثال ذلك الحدث الخاص بقارون الذي طغى وتجبر بما وَسَّع اللهُ تعالى عليه من الكنوز. بينما بسط الله الرزق والْمُلْكَ لسليمان عليه السلام فَحَمِد وشكر، ودعا إلى عبادة وتوحيد ربه تبارك وتعالى. بينما كان محمد صلى الله

عليه وسلم، وهو أحب الناس لربه تبارك وتعالى، يقل عنده الرزق كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِض)[1] وهو سيد ولد آدم، مما يُعطي عِلْمَاً دقيقاً في فهم دلالة الأرزاق، بأنها تحت مشيئة وحكمة الله تعالى، فهو أعرف بعباده، وأنها قد تكون ابتلاء، وقد تكون عقوبة، وقد تكون رحمة وإكرام سواء كان في السعة أو في التقدير.

فيبين الله تعالى عن حكمته في بسط الرزق وتوسعته لبعض الناس دون بعض، وتقتيره وتقليله لبعض الناس دون بعض ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ألم يروا بأعينهم وفكرهم كيف أن الله تعالى يوسع على من يشاء بحكمته، ويقدر على من يشاء بحكمته أيضاً. فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يوسع الرزق ويُكَثِّره لمن يشاء ﴿ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فيكثره ويوسعه، وكذلك هو الذي يقلله ﴿وَيَقْدِرُ ﴾ أي: يقلله ويقتره على من يشاء، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، أو أمماً، فإن الأمر يخضع لمشيئته سبحانه وتعالى وحكمته، لينتفي بهذا النص الكريم الفهم الخاطئ، من أنه مُرتبط برضا الله تعالى عن مَنْ بُسِط له الرزق، وعن غضبه وسخطه عَزَّ وجل على من قُدِرَ عليه رزقه. فقد يوسع تبارك وتعالى على العاصي والكافر لحكمة أرادها الله تعالى، وقد يقتر ويقلل على المؤمن لحكمة يعلمها العزيز الحكيم، فليس لذلك علاقة بكرامة العبد ومنزلته في الآخرة، فلا يدل البسط على الكرامة، ولا يدل التقتير على الإهانة. وفي هذا ما يدل على أهمية إزالة الفهم الخاطئ، في حال التعليم والإرشاد، والدعوة، وغيرها، من أجل إزالة ما يترتب على المفاهيم الخاطئة من شك أو ريبة، أو تصور خاطئ، أو اعتقاد مناف للحقيقة، مما يدل على عناية هذا الدين بالعقل وسلامة فكر الإنسان، وتفكيره وتحليله واستنتاجه، وتصحيح القياس، والاستنتاج والاستنباط.

وقد نسب الله سبحانه وتعالى البسط من الرزق له وحده، فهو الذي يُقَسِّم الأرزاق بين العباد ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ والبسط هو التوسعة. ﴿يَبْسُطُ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يوسع الرزق بما يشاء ولمن يشاء من عباده إلى درجة الوسع الذي يفيد عظيم رحابة التوسعة والإغناء. وأن هذا البسط هو تحت مشيئته تبارك وتعالى، وليس بجهد العبد ﴿لِمَن يَشَآءُ ﴾ فكم من مجتهد مبالغ في اجتهاده، بينما تحصيله من الرزق أقل من جهده، وكم من قليل في الاجتهاد، ورزقه يفوق اجتهاده.

وقد تقدم النص الكريم أداة الاستفهام المثيرة للتأمل والتفكر ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ ألم يشاهدوا ما يبين لهم حقيقة بسط الرزق وتقديره، مما يرون في أنفسهم وفي أحوال غيرهم من الدلالات والعبر، التي تثبت أن هذا الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، وليس بيد طالب الرزق. وتشمل الرؤية بالعين والرؤية بالبصيرة، وما

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٣٠/٣) برقم (٥٣٧٤)

يلحقها ويتبعها من التدبر والتفكر والاستنتاج والاستنباط في منهج التوزيع للأرزاق، بأن ليس هناك ارتباط بين مقدار الرغبة والجهد وبين مقدار التحصيل من الرزق، فكم من مجتهد لا ينال إلا القليل، وكم ممن هو أقل منه اجتهاداً ويحصل على الكثير. مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من المغيبات، ليرتقي عقله في التحليل والاستنتاج. فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على أن بسط وتقدير الرزق عائد لله تعالى وحده لا شريك له.

فقد بسط ووسع الله تعالى على قارون الرزق عقاباً له، بينما محمد صلى الله عليه وسلم، وهو أحب الناس لربه تبارك وتعالى، يقل عنده الرزق كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِض)[١] بينما بسط الرزق سبحانه وتعالى للخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حتى أنه جهز جيش العسرة، وكذلك هو عَزَّ وجل الذي بسط الرزق للصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهناك فقراء أهل الصفة رضي الله تعالى عنهم، وهناك المتوسطين في الرزق من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. حتى يبين الله تعالى للناس شأن البسط والتقدير بأنه لحكمة، وليس دليلاً على الرضا، ولا عن السخط، فمن يتأمل شأن الرزق من الله تعالى يجد فيه عظيم الحكمة والرحمة واللطف، وعظيم القدرة والملك والسلطان. فإن وسَّعَهُ تارة وضيقه تارة ليربي العبد على التدبير، ويُعَرِّفَه بأن حصول الرزق عند البسط عليه لم يكن بفهمه وجهده وفكره وحذق تصرفه، فلو كان الأمر كذلك لما ضاق عليه الرزق بعد السعة. وكذلك قد يوسع على عبده لعلمه أنه يبذله في أوجه الخير، أو لحكمة يعلمها الله تعالى ولا يعلمها العباد، وقد يقلله بالقدر المناسب للعبد، لعلمه أنه لو زاد عليه عن المقدار المناسب لطغى وأسرف، أو أورد عليه الشر من البسط. فكم من عبد يقول: لو وسَّع الله تعالى عليَّ لعملت فيه من الخير كذا وكذا، وعند التوسعة عليه يجول به في التبذير والإسراف، فالله أعلم بما سيكون من العبد عند التوسعة بالبسط، وعند التقتير والتقليل. فيعامل عباده بحكمته العظيمة ورحمته. فالحمد لله تعالى على حُسن تدبيره، وكمال لطفه عَزَّ وجل.

وقد نسب الله سبحانه وتعالى البسط من الرزق له وحده، فهو الذي يُقَسِّم الأرزاق بين العباد ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ والبسط هو التوسعة. ﴿يَبۡسُطُ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي يوسع الرزق بما يشاء ولمن يشاء من عباده إلى درجة الوسع الذي يفيد عظيم رحابة التوسعة والإغناء. وأن هذا البسط هو تحت مشيئته تبارك وتعالى، وليس بجهد العبد ﴿لِمَن يَشَآءُ ﴾ فكم من مجتهد مبالغ في اجتهاده، بينما تحصيله من الرزق أقل من جهده، وكم من قليل في الاجتهاد، ورزقه يفوق اجتهاده.

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٣٠/٣) برقم (٥٣٧٤)

ومن الناس من يكون حاله في الرزق بقدر محدد من المحدودية ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ فهو الذي بحكمته يقدر قلة الرزق، ويضيقه، ويوسعه تارة، ويضيقه تارة، وفق حكمته وعلمه بشأن عباده مما لا يعلمونه من أنفسهم حال توسعة الرزق عليهم، وحال تقديره بالقدر الذي يناسب طبع وحال كل واحد منهم. وهذا من عظيم حكمته، ورحمته بالعباد.

ثم يخبر الله تعالى بمحصلة التأمل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إن في ذلك التوزيع للأرزاق بما أخبركم ربكم به ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لدلائل وحجج وبراهين لمن تأمل وتفكر، بأن الله تعالى هو الذي يبسط الرزق ويقدر. كما أنها ليست آية واحدة بل وردت بصيغة الجمع ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ لتفيد كثرة وتعدد ما دلت عليه من الدلائل، بما يثبت أنها أدلة كثيرة، ومتظافرة، ويعضد بعضها بعضاً، بما لا يدع مجالاً للشك فيما أخبركم به ربكم سبحانه وتعالى.

ثم بين سبحانه وتعالى نوع المستفيدين من هذه الآيات العظيمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ فالذين ينتفعون بها هم المصدقون بالحقائق والبراهين، فيؤمنون بالحجج إذا قامت، ولا يقابلونها بالاستكبار، فالمصدق بالحق والحقائق إذا عرفها وأيقنها فإنه لا يكابر، بما يفيد أنها ممتنعة على المكابر الذي يتجاهل ويتعامى عن الحق، بكبريائه وزهو نفسه، واستعلائها على الحق. مما يبين أهمية التواضع للحق، وتقديم الحق على الكبر والاستعلاء والشبهات والأهواء، ليكون من المؤمنين المصدقين بالحق.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾

بعد أن ذكر جَلَّ جلاله فيما سبق: أنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر، ينتقل البيان إلى إيضاح ما يجب على المسلم من حقوق لغيره في ماله ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يوجه الله تبارك نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بما لغيره من حقوق فيما رزقه الله تعالى. والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام. وفي توجيه الخطاب لمقام النبي صلى الله عليه وسلم ما يفيد تعظيم ما أمر الله تعالى به عباده. كما أن فيه رفعة لمقام النبي عليه الصلاة والسلام باعتباره هو المبلغ لرسالة الله تعالى، وهو القدوة والأسوة لغيره. فورد الخطاب بصيغة الأمر لإفادة الوجوب ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ فأعط القرابة، حيث بدأ بهم، ثم بغيرهم في الترتيب. ومن دقائق البيان أن الأمر بالإعطاء ورد بلفظ الإيتاء ﴿ فَـَٔاتِ ﴾ والإيتاء هو الإعطاء، ولكنه يحمل دلالة المبادرة، والإيصال، وليس من خلال الطلب منهم لك، وإن حصل الطلب منهم فتؤتيهم بقدر ما يمكنك ذلك. وهذا التوجيه لكل مكلف من المؤمنين ممن وسَّع الله تعالى عليه في الرزق. وفيه بيان لأدب التعامل بالمبادرة التي تزرع المحبة والتواد بين الأقارب.

ثم حددهم وعينهم سبحانه وتعالى بدلالة القرابة ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ وهم قرابة الإنسان من قِبَل أبيه وأمه، وعموم الذين تربطهم به قرابة النسب، وقرابة المصاهرة. مما يفيد أهمية القرابة ومنزلتهم، وأهمية التواصل معهم وإسدال المعروف والإحسان إليهم، بل وجعل لهم حق في ذلك الخير، إذ سماه الله تبارك وتعالى ونعته بأنه حَقَّه ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ بما يفيد الوجوب واللزوم، فهو حق لازم الوفاء به، فكل قريب له نوع ومقدار من الحق، بحسب مقدار حاجته، وبحسب نوع حاجته، وبحسب ما عند القريب من الاستطاعة والنوع. وفي هذه المساحة من التشريع ما يجعل الأمر بالإيتاء يستوعب جميع مفردات الإيتاء، نوعاً ومقداراً، وزمناً، وسواء من حيث مساحة الحاجة، أو من حيث مساحة القدرة، وكذلك مساحة نوع الحاجة. فهناك من حاجته في المال، وهناك من حاجته في جاه قريبه، بل هي حاجات متفرقة متعددة، قد استوفاها التوجيه الكريم ببراعة البيان، وعمق الدلالة العظيمة. كما تفيد دلالة ﴿ حَقَّهُۥ ﴾ منع الامتنان عليه بما آتيته مما هو حق له عندك أيها المسلم. فإن الذي تعطيه هو حق له، قد فرضه الله عَزَّ وجل.

وفيه تشجيع المبادرة، وتعليم المسارعة في العطاء، وأن دوافع هذا العطاء استجابة وطاعة لأمر الله تعالى، وتشريعه العظيم، الذي يُعَلِّم المسلم تفقد أقاربه، وتفقد المساكين، وابن السبيل بالكرم والمبادرة، فَيُعَلِّم ويشجع ويربي في أتباعه الكرم والنخوة والجود. ليدرك أن الذي أعطاه هو الذي أمره بالعطاء، وجعله يتصرف مع أقاربه وغيرهم على سبيل المؤاخاة، وليس على سبيل التكرم والتعاظم عليهم، لأنه حق لهم عنده. وليعلم المؤمن أن ما عنده من خير هو مُلك لله تعالى، فهو الذي أعطى وهو الذي شرع وهو الذي أمر بأداء ما شرع من الحقوق. ليتبين أن هذا الدين رحمة وعظمة، يدعو إلى التعاضد والتعاطف، والتعاون، وعدم التنافر والتحاسد،

لأنه هو الذي أعطى، ووسع بحكمته، وقدَّر بلطفه وحكمته التي استوفت الخير حتى على من قدر عليه رزقه. ليدرك المؤمن وجهاً من أوجه البسط والتقدير في الرزق، والتي يحدث بها التواد والتراحم والابتلاء والاختبار.

ثم ذكر بعد ذلك سبحانه وتعالى ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم الفاقة، وسواء كان سائلاً طوافاً على الناس، أو مستكين وصابر على ما هو عليه. مما يعزز ويفيد أهمية تفقد أحوال المساكين والعناية بهم، والإحسان إليهم. كما أن في هذا بيان على عناية الله تعالى بعموم المساكين، وتوجيه القادر لإعانتهم، لتحقيق التواد والألفة بين المجتمع المسلم، وليشعر الْمُعطِي بحاجة غيره إليه، وعظيم ما امتن وأكرمه الله تعالى به، وأن من واجبه تفقد أحوال من يحيطون به، وليشعر المسكين بعناية الله تعالى به، إذ أوجب له في مال غيره حقاً، يُعطَى له بالمعروف، وكذلك ليشعر بمحبة ورحمة غيره به. فيزداد التآلف والتواد بين أفراد المجتمع.

ثم ذكر سبحانه وتعالى تعيناً ثالثاً وهو ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: المسافر، الذي يجتاز عابراً ومارّاً بغيره في سفره، فحث الكريم الرحمن الرحيم بالإحسان إليه. وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أن السبيل هو الطريق، فَنُسِب المسافر إليه، لمروره عليه ولزومه إياه، ومن الإحسان إليه إعطاؤه وهدايته وإرشاده[١] ويدخل في هذا ضيافته وإكرامه، ولو كان غنياً. وفي هذا ما يدل على أن الإحسان والمعروف ومكارم الأخلاق في منهج الإسلام تمتد وتتجاوز إلى من لا يعرفه ولا يمت له بصلة، وربما لم يلتق به إطلاقاً، وقد لا يلتقي به ما عاش في الدنيا، فالإحسان ليس بقصد المعاوضة، بل استجابة لمنهج الله تعالى. كما يفيد هذا: أن الإسلام دين مبادرة وعطاء، ودين خير وكرم، بل إن منهجه وسيلة قوية لأن يدخل فيه غير المسلمين، لِمَا يروا فيه من منهج الرحمة والتعاطف والتعاون. مما يفيد أهمية إظهار هذه المبادئ لغير المسلمين ونشرها.

ثم يأتي التشجيع والتحضيض والترغيب لهذه المكارم الأخلاقية بأمرين عظيمين في المكاسب التي تعود على من اتصف وعمل بها. الأول: متعلق بالخير والفضل الذي سيعود به على من اتصف وتمثل بما أمر الله تعالى، قال عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ذلك المذكور لكم من إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل خير وفضل لمن أخلص فيه، فأراد به وجه الله تعالى، وأراد ثوابه وكريم إحسانه وعطائه، وهو يأتي كذلك بأسلوب التحفيز من خلال المقارنة بين الممسك والمعطي. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: إعطاء الحق أفضل من الإمساك، إذا أريد بذلك وجه الله تعالى، والتقرب إليه[٢] وهذا يبين ويؤكد أهمية الإخلاص لله تعالى فيما يقوم به من تلك المكارم الأخلاقية، ولا يريد بها السمعة والتباهي والمكانة والمنزلة بين الناس. مما يبين أن منهج الإسلام يجرد المسلم من مساوئ الأخلاق التي تفتت المجتمع بما تغرسه من الشحناء

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢٤/٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥/١٤)

والتحاسد والتباغض وابتغاء المفاخر بين الناس. فهو دين عظيم في تربيته لأتباعه، وتصحيح نواياهم، وتعزيز إرادتهم، ودفعها لمسالك الخير حباً وأداء وإخلاصاً لله سبحانه وتعالى

والثاني متعلق بالفوز بثواب ما قاموا به: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ فالذين قاموا بهذه المكارم، يريدون بها وجه الله تعالى ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بمرادهم من الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. بل من دقائق البيان في التشجيع أن حصر الفلاح فيهم ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وليس الفلاح فيمن أمسك ولم يتخلق ويأتمر بما أمر الله تعالى به. مما يفيد تربوياً: أهمية التشجيع والترغيب والتحضيض لتعليم الخير، وغرسه في الناس، صغاراً وكباراً.

وبعد أن حث الله سبحانه وتعالى على أعمال الخير من مكارم التواصل، وثواب الإخلاص فيها لله تعالى، يعالج جَلَّ جلاله شأن مَن أودى بهم الطمع في الرزق إلى التكسب بالربا ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ فما أعطيتم وفعلتم من أصناف الربا، ليزداد به زيادة ونمواً، واجتلاباً واجتذاباً للمال، فإنه في المقابل لا تتضاعف عند الله تعالى، بسبب خروجها عن منهج الله عَزَّ وجل. وخص تحصيل الربا بدلالة الإيتاء ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ لأن الإيتاء المالي من الربا أقوى مقاصد الإنسان في المال، طلباً للتكسب به، ولدلالته على الجشع، وهو أشد الحرص. والربا هو: الزيادة في المعاملة بالنقود والمطعومات في القدر أو الأجل.[1]

﴿ لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: ليزداد به زيادة ونمواً، واجتلاباً واجتذاباً لأموال الناس بما يتحقق له بها من المرابح ﴿ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فإن تلك الأعمال لا تتضاعف عند الله تعالى، بسبب خروجها عن منهج الله تعالى، وابتعادها عن الإخلاص، فمقصدكم منها التربح بالعِوض، وما تدره عليكم مما تريدون.

وقد استوعبت دلالة الآية ما هو أرحب من الربا من وجه آخر وهو: تحصيل عموم المنفعة الخالية من الإخلاص لله تعالى فيها، فالمراد بها تحقيق منافع الدنيا، كالسمعة، والتباهي، وعلى أن يرد غيره له بها معروفاً.

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن قوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ في هذه الآية ثلاثة أقوال: أحدها: أن الربا ها هنا: أن يُهدي الرجلُ للرجلِ الشيء يقصد أن يُثيبه عليه أكثر من ذلك، هذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وطاووس، والضحاك، وقتادة، والقرظي، قال الضحاك: فهذا ليس فيه

---

(1) السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٤٧)

أجر، ولا وزر. وقال قتادة: ذلك الذي لا يقبله الله عَزَّ وجل، ولا يجزي به، وليس فيه وزر. والثاني: أنه الربا المحرم، قاله الحسن البصري. والثالث: أنه الرجل يعطي من يخدمه لأجل خدمته، لا لأجل الله تعالى، قاله الشعبي[١] وبمثل تلك الأقوال ذكر القرطبي رحمه الله تعالى[٢] وغيره من أهل التفسير. مما يدلل على أهمية المتابعة في العمل، والإخلاص لله تعالى، لمن أراد ثواب الله عَزَّ وجل.

ومن رحابة دلالة النص الكريم أنه استوعب تلك الدلالات الثلاث، فما كان من الأعمال المباحة التي يرتجي بها الإنسان مرابح الدنيا، وليس فيها إخلاص لله تعالى، سواء عند الإهداء، أو دفع الأجرة لمن يخدمه، فلا تربوا عند الله تعالى بالعطاء والإكرام والزيادة والنمو، بل لا يعاقب ولا يثاب عليها، وشملت كذلك الربا المحرم. وهذا من الإعجاز في البيان، من أن يستوعب البيان بسياق واحد جميع أنواع المراد على تعدده.

ثم يخبر تبارك وتعالى بمن يُضاعف لهم ما قدموا من الخير ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ أي: وأما ما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة، وإنما تريدون بها ما عند الله تعالى[٣] قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: من صدقة[٤] فهي تشمل عموم العطاء المتعلق بعموم الصدقات، والتي منها الزكاة فجردتموها من ابتغاء المكافأة من الناس، فكان العطاء خالصاً لله تعالى وحده لا شريك له ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ هم الذين تتضاعف حسناتهم بما قدموا لغيرهم من الخير، أي: هم أولي الأضعاف، لتفيد المبالغة فيما يُضاعف لهم من الأجور، وبما يفيد أنها غير محصورة العدد من التضعيف، وهذا من عظيم كرم الله تعالى، والذي لا يعلم بمداه وقدره غير العزيز الرحمن، وما في ذلك من الرحمة والإكرام. مما يغرس في المسلم إذا تفهم هذا الإخلاص فيما يعطيه ويقدمه لغيره، ولا ينظر لِمَا عند الناس، ولا يلتفت إليه، فإنه يكون أسرع للمبادرة في إعطاء الزكاة والصدقات إخلاصاً لله تعالى، وليس للرياء والسمعة. بل سيجعله ذلك أسوة وقدوة، ومصدراً وراية خير بين الناس، بسلوكه الرباني. فيقتدي به غيره، فيجمع لنفسه أجوراً عظيمة، لقاء من اقتدى به وتأسى. بل خصهم الله تعالى بتخصيص عيني بدلالة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ﴾ وليس غيرهم ممن عمل الحسنات ابتغاء منافع غيره من الناس، حتى ينتفع بها.

ثم يوجه الله تعالى المشركين إلى قضية الرزق، مع ربطها بالخلق والإنشاء والإماتة، ثم البعث والنشور، ليتكامل المفهوم لدى الجميع من تعاضد بعضها ببعض، لأن الرزق ومفهومه يشكل قضية وأمراً مهماً عند الإنسان.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٣/٦)
(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥/١٤)
(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٣/٦)
(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٥/١٤)

فقرن الله تعالى فهم الخلق والإماتة والبعث والنشور بنفي الشرك. فمن تحقق فيه الفهم لهذا الشأن فقد تفهم به انتفاء الشريك لله تعالى. فقال عزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بدأ الله تبارك وتعالى بيانه وخطابه للمشركين بلفت نظرهم إلى تقريره عزَّ وجل بأن ربكم سبحانه وتعالى هو الذي خلقهم، ثم هو الذي يرزقهم، ثم يميتهم، ثم يحييهم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ ثم يُتبع ذلك البيان التقريري بسؤال استنكار، يقضي بالتأمل والتفهم للحق. ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ فهل يوجد أحد من شركائكم من يقوم بشيء من ذلك؟ فهي محاجة مُلجمة لهم، إذ لا أحد منهم يستطيع أن ينسب شيئاً من ذلك للشركاء الذين اخترعوهم بالافتراء الكاذب، فإذاً اعلموا أنه لا شريك له ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فإن ربكم مُنَزَّهٌ عن الشريك، وأنه عالي المقام والشأن والعزة والسلطان، ومن أن يكون له شريك، وقد انفرد بالخلق والرزق، والإماتة، والبعث بعد الموت.

ليبين لهم بالمنطق الصحيح الذي تقر به العقول السليمة أن لا إله إلا الله تبارك وتعالى، وأن من زعم أن له شريكاً عَزَّ وجل فقد افترى. ليدل على قوة الحجة، ودحر افتراء المشركين، وتعليمهم بالأسلوب العقلي اللبيب بأنهم في شركهم مفترون كاذبون.

ومن دقائق السياق وجمال تراكيبه أن بدأ الله تبارك وتعالى البيان بإثبات الخلق ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ فلا أحد يقول بأنه خلق نفسه، ولا يقول أنه خُلِق من غير خالق له، وبالتالي أين من تزعمون من الشركاء عن الخلق؟ فيقررهم بأصعب الأشياء، وهي الخلق. ولما أنه بعد الخلق تأتي الحياة، وأهم مقوماتها الرزق، جاء الترتيب المتتالي للرزق بحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ الذي يفيد الترتيب والتتالي، وبما يفيد النسق العجيب بين الإيجاد وتلبية الاحتياج من أنواع الرزق ﴿ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ فبعد أن أوجدكم رزقكم من كل شيء، فأوجد ما تحتاجونه من المأكولات والمشروبات، وما تعيشون به وتتحصنون به، ففطركم على اتخاذ المأوى من المنازل ونحوها، ورزقكم ما تحتاجون إليه في التنقل والتجارة والتكسب، من الدواب المتنوعة، التي تحملكم وتحمل أثقالكم، وخلق لكم الأنعام والنبات لتأكلوا منها، والماء لتشربوا منه. وغير ذلك من سبل ووسائل وأنواع الرزق العام. فمن الذي واءم بين احتياجكم وبين إيجاد ما تحتاجونه؟ فمن تأمل ذلك أدرك عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وأدرك أنه هو المدبر، وأنه عظيم في خلقه وتدبيره، وقد تجلت عظمته في كل شيء خلقه ودبَّره أحسن وأكمل تدبير سبحانه وتعالى.

ثم تلي ذلك في الترتيب نهاية حياة الفرد ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ فهو الذي يميتكم في الساعة التي حددها لكل واحد منكم، فلا أحد يستطيع أن يؤخر موته لحظة واحدة، ولا أحد يقول بأنه يختار ساعة موته، ليقر بذلك أن الله تعالى هو الذي يقرر موته كما قرر خروجه للدنيا. فإنها آية عظيمة فيما ترون ممن يموت أمامكم ممن يحيط بكم من الخلق. ثم بهذا البيان المتتالي لحياة الإنسان الذي يدل على قدرته عَزَّ وجل على كل شيء أخبر به، ليأتي بعد ذلك بيان إعادة الخلق ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ فإن هذه الحياة بعد الموت تتقرر قدرتها وحصولها في العقول بما سبق من بيان الخلق، ثم الرزق، ثم الموت. فليس هناك ما يمنع البعث بعد الموت، لأن الذي أنشأ من العدم، يعيد ما خلق كما كان.

ثم بعد ذلك التقرير بأطوار وأحوال حياة الإنسان، وفي تدرج عظيم، انتقل البيان إلى تعجيزهم بسؤال، يكشف لهم به خطأ وكذب اتخاذ الشركاء من دون الله تعالى ﴿ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ﴾ فهل يوجد من شركائكم من يقوم بشيء من ذلك؟ فهي محاجة مُلجمة لهم. فالجواب حتماً هو: ليس لهم شيء من ذلك. إذاً فإن البيان يُوجب عليكم توحيد الله تبارك وتعالى الذي خلقكم ورزقكم، والذي يميتكم ثم يبعثكم. ثم تلاه البراءة والتنزيه من أن يكون لله تعالى شركاء ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تنزه ربكم عن أن يكون له شريك في ملكه. فتعالى وتنزه الله تبارك وتعالى عما يشركه المشركون مع ربهم عَزَّ وجل. فإن مَن ساوى بين عظمته جَلَّ جلاله وبين غيره من المخلوقات فإنه لم ينزه ولم يُقَدِّر ويُعَظِّم ربه التعظيم الذي يليق به جَلَّ في علاه. فهو تدرج غاية في الدقة التي تُعَلِّم الإنسان المسلم كيف يُقيم الحجة، وكيف يبدأ، وكيف يتدرج في البيان والإيضاح، وكيف يبتعد عن المغالطات. فإن منهج الله تعالى قائم على كمال الإيضاح.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن سبب ظهور الفساد في العالم بجميع أنواعه وأشكاله، بأنه بسبب كثرة معاصي الإنسان وفجوره، وأعلاها الشرك، وعموم الكفر. فقال تعالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ يُثبت الله تبارك وتعالى عن ظهور الفساد ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ ﴾ والظهور يدل على الخروج والبروز، وأنه أصبح حقيقة ظاهرة للعيان، ودلالة الفساد في البيان الكريم يعم كل شيء مما ليس فيه مصلحة، وفيه مفسدة، وهو ما يُضاد المصلحة، فيشمل: القحط، والفيضانات، والزلازل، وارتكاب المعاصي، والمجاهرة بها، وكثرة القتل، والشرك، وعموم الكفر، ونقصان البركة، وغيرها مما يضاد مصالح الإنسان. فإن من كثرته أن أصبح ظهوره عاماً ليشمل البر والبحر ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والتعريف في الفساد يدل على الجنس، فيعم كل فساد واقع

في حيزي البر والبحر. والظاهر من الآية هو ظهور ما يصح إطلاق الفساد عليه. سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم، من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجع إلى ما هو من جهة الله سبحانه وتعالى، بسبب ذنوبهم، كالقحط، وكثرة الخوف(١) والمقصود بالبر، أي: اليابسة، والبحر، الذي هو ضد اليابسة من المحيطات والبحار والأنهار.

فأخبر الله سبحانه وتعالى بسبب الفساد الذي ظهر في البر والبحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فإن ظهور الفساد وانتشاره في البر والبحر هو بسبب كثرة ما اقترف جنس الإنسان من الذنوب والمعاصي، وأشدها الكفر الذي منه الشرك. ووصف وكَنَّا عن آلة كسب المعاصي بالأيدي ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ باعتبار أنها الأداة الأكثر استعمالاً في الكسب والاجتراح، فلا يكاد الإنسان يجترح شيئاً ويكتسبه إلا واليد طرف فيه، فيأخذ ويعطي ويبطش، ويكسر، ويقتل، ويهدد، ويصيد، ويحصد، ويبني ويخرب بيده، ويذهب للمعبودات، ويلمسها، ويدعو ويطلب رافعاً يديه أو ما سكاً بها. فهي كناية عن عموم ما يكتسبه الإنسان.

ومن دقائق البيان ورود التعميم لجنس الإنسان ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ باعتبار أكثر الناس هم أهل الكفر، فورد التعميم على نسبة الأكثرية. وما يحصل أيضاً من المسلمين من الصغائر، أو دخول بعضهم في الكبائر، كالزنا، وشرب الخمر. ثم أورد سبحانه العقوبة بالذوق ﴿لِيُذِيقَهُم ﴾ التي أفادت دلالتها قوة التوجع والتأثر بما أصابهم، والذي يجدونه من العقوبة الربانية، لأن الذوق هو أقوى حواس الشعور. ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فإن هذا العقوبة التي أظهر الله تعالى بها إفساد بعض أمور الحياة، هي عقوبة للإنسان على بعض الذي عملوا من المعاصي، وليس على جميع المعاصي، فكلمة ﴿بَعْضَ ﴾ تفيد التبعيض، أي على شيء وعلى جزء، وبعض الشيء مما عملوا من المعاصي ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ فكيف لو أراد الله تعالى معاقبتهم على جميع المعاصي؟ لأهلك الإنسان، ولكن الله تعالى حليم، رحيم.

فلعل تلك عَزَّ وجل العقوبات بقوله جَلَّ جلاله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لعلهم يهتدون فيرجعون عن الباطل إلى الهداية، فإن الهدف هو عودتهم إلى الحق. وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، بأنه ما أراد بهم الهلاك وإنما أراد بهم خيراً فيما يصيبهم من العقوبات، وذلك بالعودة إلى ربهم. مما يتطلب من المؤمن أن يتأمل حال ما

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٢٨/٤)

تصيبه مصيبة، ويتفقد نفسه، وأخطاءه، فلعل الله تعالى أراد أن ينبهه، ويجعله يستيقظ من سبات أخطائه ولهوه ومعاصيه.

ثم يحذر الله تعالى عباده عن الفساد وعاقبته وعقابه، بأن يسيروا في الأرض، فيتأملون عاقبة الفاسدين، المفسدين من قبلهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ يُوجِّه الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُبَلِّغ ويرشد المشركين الصادين عن الإسلام إلى السير في الأرض، ثم ينظروا فيما حل من العذاب بالأمم الكافرة التي كانت قبلهم ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ فبلغهم أن يضربوا في الأرض عموماً، لأن الأمر بالسير ورد على وجه العموم، ليفيد إنشاء السير من أجل العلم بحال تلك الأمم الهالكة، وأن يتأملوا ويتفكروا فيما حصل من عذاب ودمار للأمم التي قبلهم، ممن كذبوا بِرُسُلهم، فحاق بهم العذاب.

وفي هذا التوجيه الرباني ما يفيد: الإرشاد إلى السير نحو معالم الحق، والتفتيش والاستعلام عن الحوادث التي تؤكد الحق وبيانه، وأخذ العبرة، والاسترشاد منها للخير والحق، كما يفيد لزوم السفر في طلب الحق واستعلامه، والاتعاظ بالغير، كما تفيد دلالة ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ التأمل، مع تعليل القصد من السفر، والعلاقة بين أمر السفر، وبين الإفادة منه، فسيروا من أجل نظر التأمل والتدبر، وذلك بأخذ الدروس التي تبين الحق، والانتفاع بالسفر، وذلك بالربط فيه بين مصلحة الدنيا، ومصلحة الآخرة التي تنجي من عذاب الله تعالى، وتحقق رضاه والجنة. فيا أيها النبي صلى الله عليه وسلم أخبر هؤلاء المكذبين بأن يضربوا في الأرض، وأن يتأملوا أخبار الأمم التي كذبت الرسل، وكيف عاقبهم الله تعالى على كفرهم، فهل تريدون أن يحصل لكم مثل ما حصل لهم؟ أم تريدون أن تتعظوا بهم، وبما حصل لهم من العقاب.

وجملة ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ﴾ تفيد التوجيه لهم بالتأمل الذي يحمل التفكر، فكلمة ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾ تفيد نظر العين، ونظر البصيرة بالتأمل والتَّبَصُّر، وكلمة ﴿كَيْفَ﴾ تؤكد وتبين علة النظر من فهم وأخذ العبرة والمآل، وتقليب الفكر في حالهم ومآلهم، فهو استفهام يفيد الاعتبار، عن كيف سيكون حالكم أيها المكذبون المشركون من بعد ما عرفتم بالذي حل بأولئك الذين تشابهتم معهم في التكذيب والإنكار؟ فكيف تصنعون؟ فهو استفهام توقف، وتدبر، وتأمل لموقف قد يمر بهم إن لم يتعظوا. وفي هذا استثارة للذهن بالتفكر في تبعات المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون حال وقوع مصيبة بهم، وذلك بأخذ العبرة من غيرهم، ففي ذلك استحثاث بأن يتصوروا موقفهم وحالهم قبل أن يكونوا مثلهم، مما يفيد أهمية التفكير في الحوادث وأخذ العبرة منها، وكذلك تقليب أوجه الأمر، قبل الدخول فيه، وأن منهج القرآن الكريم

في أساليبه قائم على التدبر والتفكر والحقائق، إذ يُوجِّه الْمُخَاطَب توجيهاً تأملياً، وتوجيهاً تدبرياً، بما يرفع من مستواه الفكري نحو التعقل، واستبصار طريق الحق بوضوح، للأخذ به والنجاة من خلاله.

ومن جميل أساليب استحثاث العقل للتفكر في قوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ ولم يبين أو يذكر سبحانه وتعالى نوع العقاب، ليكون وقعه النفسي أعظم، ومجال التفكر فيه أوسع، وكذلك لعلة تعدد أنواع عذاب أولئك الكافرين، كما قال تعالى في سورة العنكبوت ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ولم يحدد ويعين سبحانه وتعالى أمة محددة ممن كانوا ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ لتستوعب كل من كان قبلهم، ولإفادة أنكم تعرفونهم، فقد اشتهر أمرهم، وتناقله الناس بينهم، حتى وصل واشتهر أمرهم عندكم، ومن تلك الأقوام: قوم عاد وثمود ولوط، وقوم فرعون، وغيرهم. وكذلك لإفادة التهويل لهم. فقد ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ فكان يغلب عليهم ما أنتم فيه من الشرك، مما يفيد: احذروا، فإن عاقبة الشرك هو العذاب والهلاك والدمار، فلكم فيهم عبرة. مما يفيد أهمية الاعتبار عند السير في الأرض، مما يحيط بالإنسان، بل وأهمية إنشاء السير إن كان يحصل به الإيمان، لما في التدبر والتأمل من تقوية الإيمان للمؤمنين، ومن الاعتبار وإحداث وإنشاء الإيمان في قلوب غير المؤمنين.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

ثم يأمر الله تعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا ينشغل بالمشركين المعاندين طالما أن أمرهم كذلك من الصدود والتباعد، فلا تلتفت إليهم، ولا تنشغل بهم، ولا تهتم بإعراضهم وصدودهم، وإنما أقم الدين، وسر به عملاً ودعوة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ

﴿ يَصَّدَّعُونَ ﴾ فيأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام، بأن يقيم على ما هو عليه من الدين ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّـمِ ﴾ فأقم قصدك، وأَوضِح الحق وبالغ فيه، واجعل جهتك واتجاهك هو اتباع دين الإسلام المستقيم. وانصب واستمر واثبت، وأقم توجهك واتجاهك أيها النبي ومن معك من المؤمنين ﴿ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّـمِ ﴾ المستقيم، الذي هو الإسلام وفي ذلك تزكية وبيان لشريعة الله تعالى، بأنها قائمة على التوحيد والكمال من الاستقامة، والطاعة لله تعالى، والصبر والشكر. وفي هذا التوجيه ما يفيد بأن لا تنشغل بمن عاندوا وكابروا، بل واصل مسيرك، فيما أنت فيه من الدين، ولا تلتفت إليهم، ولا تحزن عليهم، فتنشغل بهم عن دينك وعن غيرهم. مما يفيد بأن لا ينشغل الإنسان في مسيرة حياته الصالحة والمستقيمة بالمثبطين، والشاغلين والمنشغلين بتوافه الأمور، بل يمضي قدماً، حتى لا يتعطل المسير في الحق والخير. ففي كل جانب من جوانب الحياة معطلين ومثبطين، ومشككين، ففي استصحاب التوجيه الكريم على المسار المستقيم للحياة، يجعل المسلم يتجاوز بهذا الفهم، وهذا التوجيه الكريم الكثير من العقبات.

ومن دقائق البيان استخدام الوجه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ للتعبير عن الاتجاه، والاهتمام، والإقبال، فالوجه هو المعبر عن الإدبار وعن جهة التوجه، والاستقامة، وعن نوع الاهتمام بما أقبل عليه الوجه، وبما يشتغل به، وبما يفيد عدم الالتفات لمن صد وأعرض وتولى. وإنما اتجه لشأن إقامة الدين. فكان التوضيح به أجمل وأدق وأقوى توضيح في اختياره دون غيره. كما أن الأمر بالإقامة ﴿ فَأَقِمْ ﴾ تعطي دلالة القيام بالأمر من جميع متطلباته وما يتعلق به، فإذا كان المأمور به متعلق بالوجه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ فقد أعطاه دلالة إقامة الانتباه، والتركيز والاهتمام. ثم أوقع أمر إقامة الوجه على شأن الدين ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ الذي هو المحور والمرتكز، وهو الذي بُعثت به، ثم أُلحق بالدين صفته ونوعه ﴿ ٱلْقَيِّـمِ ﴾ وهي الصفة الموضحة للدين، بانه دين مستقيم لا اعوجاج فيه أبداً، فإنك أيها النبي تقيم على دين مُتَّصِفٌ بالاستقامة، البعيدة عن الشرك وعن كل شائنة وناقصة، والمعبرة عن الكمال في ذاته، والمكمل لكل من أخذه والتزم به، وأنه يحقق في أتباعه السلامة والاستقامة. فمفردات كلام الله تعالى غاية في بلاغة البيان والمقصد، والمضمون، معناً وجمالاً وهدفاً وغاية.

ثم يأتي التحذير من اليوم الذي لا يمكن للإنسان أن يتدارك أمره فيه، ويغير ويصحح مساره واعوجاجه ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ وهو يوم القيامة، من قبل أن يأتي اليوم الذي لا مرد لمجيئه وحصوله، فلن يرده الله تعالى، ولا يمكن لأحد دفعه ورده، بما يفيد أن يوم القيامة هو يوم كائن وحاسم، لا جدال فيه، فقد أقره الله تعالى وحكم بحدوثه، فلا طلب، ولا دعاء يرد وقوعه، فهو واقع كما أمر عَزَّ وجل

وحكم به. وحين ذلك يفترقون ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ أي: يتفرقون، ففريق في الجنة، وفريق في السعير. فهو يفيد التحذير من الله تعالى لذلك اليوم، قبل أن يحل بكم أيها الناس وأنتم عنه غافلون. فانتبهوا لأنفسكم من ذلك اليوم.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن حدود مسؤوليته المتعلقة بغيره ممن كفر وعاند. فقال تعالى ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ فإن من كفر فلست أيها النبي بملُوم ولا مُحَاسَب على كفر من كفر، فإن ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ﴾ فمن كفر فإن جزاء كفره عائد عليه فقط، فهو الذي يتحمل تبعات كفره، وعقوبة امتناعه. فلست عليهم بملوم، كما أنه ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ ومن عمل الصالحات التي أمر الله تعالى بها، فإن عمله وثوابه عائد عليه، ويكون قد مهد وهيأ لنفسه بما يجازيه الله تعالى به من الفضل. وأورد الله تعالى النتيجة بالتمهيد ﴿ يَمْهَدُونَ ﴾ التي تفيد التوطئة والتسوية، فتعبر عن الجهد المبذول لتحقيق المأمول.

ثم يخبر الله تعالى بالجزاء الذي يحفز كل عامل بطاعة الله تعالى إلى تحصيله، وهو عظيم الإثابة، ليزداد عملاً صالحاً، وإخلاصاً لله تعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإن الله ربكم يعد الذين صَدَّقُوا فآمنوا، وعملوا بطاعة ربهم بالجزاء العظيم الجزيل الذي هو ﴿ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ وفضل الله تعالى هو العطاء الجزيل من الخير، وهو عطاء يفوق ما يستحقون، فثواب ربي أكبر مما عمل الإنسان من الطاعة، لمحبته عَزَّ وجل للمؤمنين، وبغضه للكافرين ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يحب الكافرين، بما يفيد بغضه وكرهه لمن كفر وبالمقابل حبه لمن آمن وأطاع وامتثل. وفي هذا بيان لعدل الله تعالى بين من أطاعه، وبين من كفر. وفيه بيان وإيضاح للطريق الذي يسيرون عليه لتحصيل النجاة، وأن على كل إنسان أن يتحمل ويجني ثمرة وعاقبة مساره الذي يختاره في حياته، فلا يلومن إلا نفسه. وقد أعذر من أنذر، وبين وأوضح سبحانه وتعالى.

ثم يعود البيان إلى الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته، وعظيم سلطانه عَزَّ وجل، وكريم فضله ورحمته وإحسانه على عباده ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فإن من مظاهر وظواهر البراهين والحجج الموضحة لكمال قدرة ربكم

وإحسانه على خلقه عَزَّ وجل هو إرساله الرياح التي تبشر بالأمطار ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ فهي تبشركم بما تحبون من نزول الغيث. وهي شيء من مفردات آيات ربكم جَل جلاله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾ فليس ذلك جميع آياته، بل إنها مفردة واحدة من آياته، وهذه المفردة متضمنة للعديد من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم رحمته، ولطفه بعباده سبحانه وتعالى، والتي تُوجِب أن يقابلوا هذه الآيات بالطاعة والامتثال، والحمد والشكر، لا أن يشركوا به، ويعصونه بالمعاصي.

فمن آياته ﴿ أَن يُرْسِلَ ﴾ فعزا سبحانه وتعالى الإرسال له وحده لا شريك له، ومؤكدة بنون التوكيد ﴿ أَن ﴾ والتي تؤكد ما بعده من البيان ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ ﴾ فهو الذي قَدَّر وخلق الرياح التي تسوق السحاب من مكان لآخر، بحسب توجيه الله تعالى لها. وسماها سبحانه وتعالى ﴿ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ لأنها تحمل دلالات الخير والنعمة من الأمطار التي ستحل عليهم قبل نزولها. بل وردت بصيغة الجمع ﴿ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ لتفيد كثرت ما تبشر به من الخير. بما تحمله من الأحداث السارة، كَسُقيا الأرض، وظهور النبات، وارتفاع منسوب المياه، وغير ذلك من المبشرات.

ثم يبين ربنا تبارك وتعالى الهدف من سوق الرياح وما تحمله من بشارة الأمطار الذي يغيث الناس، بأنه من أجل إذاقتكم شيئاً من رحمته ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ لتتلذذوا وتتمتعوا بشيء من رحمته. فالذوق فيه استطعام وتلذذ بأطايب الأشياء. فأدق حالات الاستشعار هي حاسة الذوق، فجاء الوصف لها بأدق الحواس شعوراً عند الإنسان.

ووردت الرحمة مسبوقة بحرف ﴿ مِّن ﴾ بما يفيد أن هذا هو شيء من رحمته تبارك وتعالى، وليست جميع رحمته عَزَّ وجل ﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ ليتبين دقة البيان، وليتبين أن رحمة الله تعالى لا تُحصى عدداً، ونوعاً، ودرجة، فهو أرحم الراحمين، كما يبين هذا لطف الله تعالى بعباده، وأنه يعاملهم برحمته، بل ويُدخل عليهم السرور بالمبشرات. مما يبين أهمية أسلوب البشارة، وأهمية البشارة للغير بالخير، فهو منهج رباني كريم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أن من مفردات آياته بهذه الرياح المبشرات، وأهدافها هو ما يتعلق بمسيرة وسير الفلك من السفن والقوارب ﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ فبهذه الرياح المبشرات تسير السفن الشراعية مسرعة بهذه الرياح، لتقطع المسافات الطويلة في زمن قصير، بدلاً عن استخدام المجاديف. وربط سبحانه هذا

الإرسال وهذا الجريان للسفن بأنه خاضع لأمره ﴿ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ليتبين للعباد بأن الله تعالى هو المتحكم في جريانها، كما أنه هو الذي هدى الإنسان إلى صنعها.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أن من مفردات آياته بهذه الرياح المبشرات، وأهدافها هو ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي: لِتُحَصِّلُوا أرزاقكم بهذا السفن التي تجري بها الرياح في البحر نحو مبتغاكم من طلب الرزق، وانتقالكم من بلد لآخر، بما تتاجرون به من الأرزاق، وما تنقلونه من الناس والمتاع. وكذلك بهذا المطر الذي ينبت به الزرع، وتخضر به الأرض. فمسيركم بفضله، والرزق هو من فضله، وجميع أنواع ما تتطلبون هو من فضله تبارك وتعالى. فجمعت ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ كل ما يحصل عليه الإنسان من الخير، فهو من فضله تبارك وتعالى، مما يُوجب على الإنسان أن ينسب كل خير يُحَصّله إلى ربه سبحانه وتعالى، الذي تفضل بما أعطى ومنح. كما يفيد ذلك البيان بأن لا تتفاخر ولا تتباهى يا أيها الإنسان وتتكبر وتتعالى بما حَصَّلت، فإنه بفضل الله تعالى، وبأن لا يحسد أحدٌ أحداً، لأنه من فضل الله تعالى. فهو بيان يربي في المؤمن خصال الخير، وأفضل درجات الفهم وأحسنه، ويعلمه العلم بمجريات الأرزاق، وبآيات الله تعالى، الدالة على عظمته من كل وجه، فله الحمد والثناء الحسن والشكر سبحانه وتعالى.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بالغاية العظمى من ذلك الإنعام العظيم ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فهذا الإنعام والفضل لكي تحمدوا ربكم وتشكروه على هذا العطاء من الفضل. مما يوضح للمؤمن بأن إنعام الله تعالى غايته الشكر، والحمد والثناء على الله تعالى بما أعطى وأنعم، وأن يستخدمه في طاعته عَزَّ وجل. فإنها مدرسة الإيمان والخير والعبودية والتواضع والشكر للمنعم عَزَّ وجل.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ويعود الرد على المشركين، بإقامة الحجة عليهم، وبيان أن من يرسلهم اللهُ تعالى لعباده من المرسلين هم بشر، مثل غيرهم، ويُبعثون لأقوامهم، وهم يحملون الحجج من المعجزات الدالة على أنهم مُرسلون ومبعوثون من عند الله تعالى. وليس لأحد منهم أن يأتي بآية من نفسه، وأن الله تعالى ينصر رُسُلَه، وينتقم عَزَّ وجل من المكذبين ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقد جزم بيان الآية الكريمة بحرف التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ بما يفيد التأكيد القطعي بأن الله تعالى قد أرسل المرسلين من قبل نبوءتك وبعثك إلى قومك يا أيها النبي، ومعهم الحجج والبراهين من الآيات البينات، وأنهم بشر من الناس، وفي ذلك رد على من يتوهم أو يطلب رسلاً من الملائكة تكلمهم. وما محمد صلى الله عليه وسلم إلا واحد من أولئك المرسلين المبعوثين لأقوامهم، عليهم الصلاة والسلام، وإن كان الخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم فإن المقصود بسياقه وبيانه أنه للمنكرين الذين ينكرون أن تكون الرسالة على بشر مثلهم ومنهم، أو ينكرون البينات والآيات من الحجج والبراهين الدالة على صدق النبوة ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فلقد أرسلنا المرسلين من قبل نبوتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم، ومعهم البينات من الحجج. وفي ذلك إثبات أن لكل رسول بينات من المعجزات الخاصة به، غير معجزات غيره من المرسلين، وتجتمع في أنها آيات قد اتصفت بالوضوح والظهور والتجلي بأنها من عند الله سبحانه وتعالى. وقد ورد تسمية الآيات هنا بمعنى ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ التي جمعت بين المعجزة وبين الوضوح والظهور كصفة للآيات من الحجج والبراهين المعجزة.

فيتناول السياق القرآني الكريم استكمال بيان قدرته وسُننه سبحانه وتعالى في إرسال المرسلين بالبينات، لعل المخاطبون به يعقلون. وقد تناول الخطاب الكريم بيان ما أرسل الله تعالى للأمم السابقة من الرُّسُل ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ فدلالة ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ تفيد أن الرسول المبعوث هو من نفس قومه، فيعرفونه ويعرفون سيرته حق المعرفة قبل أن يكون رسولاً مكلفاً بالرسالة التي جاءهم بها ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وجاء هؤلاء الرُّسُل لأقوامهم بالحجج والآيات الواضحة، التي تؤكد أنهم مُرسلُون من الله سبحانه وتعالى فلما كذبت تلك الأمم بِرُسُل الله تعالى حصل الانتقام بالعذاب الشديد ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ فانتقم الله تعالى من هؤلاء المكذبين المجرمين بإهلاكهم بما يستحقون من العذاب.

والانتقام هو العقوبة والجزاء الرادع الشديد على مخالفة عظيمة جسيمة، ولذلك سَمَّى الله تعالى أولئك المعاقَبون بالمجرمين لتكذيبهم رُسُلهم، وما معهم من البينات ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ والمجرم: هو الذي اغترف وارتكب ما جنى به على نفسه من العقوبة التي يستحق، لخروجه عن الحق، لأنه قطع الأصل بالنقيض،

وهو الكفر. فنقضوا وضادوا الأدلة والحجج، والحق والفطرة. فأصاب الله تعالى هؤلاء المترفعون والمتعالون على أنبياء الله تعالى بأشد العذاب الشديد، الذي أذلهم وأهانهم. مما يبين أن الله تعالى بالمرصاد لمن كابر بنفسه على الحق، واستعلى عليه، وترفع عنه. مما يُوجب الحذر من انتقامه عَزَّ وجل، وذلك بطاعته، والتوبة عند وقوع الزلل والخطأ.

ثم يخبر سبحانه وتعالى أنه أوجب على نفسه نصر المؤمنين ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وهو واجب أوجبه سبحانه وتعالى على نفسه من باب التكريم للمؤمنين. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هو حق أوجبه على نفسه الكريمة، تكرماً وتفضلاً[1] ليبين مدى محبته للمؤمنين سبحانه وتعالى، وهو في غنى عنهم جَلَّ في علاه. وهم الفقراء إليه عَزَّ وجل، مما يفيد ويبين أن الله تعالى مع المؤمنين، نصراً وتأييداً على من عاداهم. وفي هذا تعزيز وتحضيض وترغيب في مسلك الإيمان، وتقوية للمؤمنين، ورفعة لشأنهم من لدنه تبارك وتعالى.

فقد تميزت سورة الروم بكثرة إثارة الآيات التي تدل على عظمة الخالق، وأنه المدبر لهذا الكون، وأنه هو المنعم على عباده بما أنعم وتفضل من الخير والتسخير. وهنا تعود السورة في سياقها الكريم إلى بعض آيات الله الكونية، فيقول تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ إن الذي يرسل الرياح لتحريك السحاب، وانتقاله وتنقله من مكان إلى مكان آخر هو الله ربكم تبارك وتعالى.

والإثارة ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ هي: التحريك للشيء، وسوقه من مكان لآخر، فهي تحركه تجمعاً للسحاب، ونقلاً له بالسوق من مكان لآخر ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ فليس لأحد شيء من التدبير في ذلك غيره جَلَّ جلاله، فإنه حصر وقصر ذلك على تدبيره عَزَّ وجل.

فتثير هذه الرياح التي تتحرك في الفضاء بأمره وحكمته ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ فتنشر السحاب، وتوزعه، وتسوقه ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ ﴾ أي: فَيَجمَعُ الله تعالى السحاب ويَمُده بأمره للرياح أن تنقله من مكان لآخر، ليحدث البسط بمده وتوسعة مساحته بعد جمعه. فهناك إثارة، وهناك بسط للسحاب، فالإثارة للنشر، والبسط للجمع والمد والتوسعة من أجل إنزال المطر. فهي عملية غاية في إظهار القدرة العجيبة لمن تأمل تجميع السحاب، وجريانه في الطبقات العليا من السماء، ثم تجميعه، ثم مده وبسطه بتوسعة مساحته على المكان الذي قضى وأمر جَلَّ في علاه أن ينزل فيه المطر. فسبحان الله العظيم.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٤٤٦)

وأن تكوين ذلك هو بحسب إرادته عَزَّ في علاه ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فيجعله بالكيفية والهيئة التي يريدها عَزَّ وجل، فقد يكون سحاباً كثيفاً، فيكثر فيه السواد لغزارة تجمعه، وإن شاء جعله خفيفاً، وإن شاء جعله متناثراً، فيمطر بعضه، ولا يمطر بعضه، وإن شاء جعله في جهة دون جهة، ليدرك الإنسان في ذلك عظيم سلطانه، وتدبيره تبارك وتعالى، فيسوقه كما يسوق الأرزاق بين العباد. مما يُوجب تسبيحه وحمده، وتوحيده، وتعظيمه، وطاعته بعبادته وحده لا شريك له، وتنزيهه عن الشريك، وعن كل نقص وعيب. سبحانه جَلَّ جلاله.

ثم يخبر الله تعالى بتدبيره للسحاب بحسب مشيئته، ومن ذلك أن يجعله قطعاً ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ والكسف هو القطعة. أي: يجعل السحاب قطعاً بعضها فوق بعض، أو قطعاً متفرقة ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ فتشاهد ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ وهو المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ من خلال السحاب المبسوط في السماء. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فإذا أصاب بهذا السحاب عباده من الغيث ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون بنزول المطر عليهم، مستبشرين بالخير، من ظهور الزرع، والنبات، والحشائش، التي تتغذى بها الماشية. وأن ذلك الاستبشار لشدة الحاجة إليه. إذ به يكثر الماء، وتخضر الأرض. وهو سبب لحياتهم، وحيات مزارعهم، وحياة ماشيتهم. فإنها نعمة عظيمة، إذ ينشرح بها الصدر، وتكثر بها النِّعَم، إضافة إلى أن فيه آيات عظيمة لمن تأملها وتدبرها، ليرى المتأمل عظمة المدبر والرزاق والمعطي، ويشاهد قوة تدبيره، وطاعة الكون له. بما يستوجب طاعة العباد الذي سخر لهم هذا الإنعام العظيم، بالهيئة والكيفية التي يظهر الإعجاز فيها من كل وجه. فسبحان الله، والحمد لله.

ثم يخبر الله وتعالى عن حال العباد قبل نزول المطر، وما هو حاصل لهم من الفاقة والحاجة التي بلغت بهم مبلغاً عظيماً ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ فحالهم قبل نزول المطر في ترقب وتشفق، وحاجة وفاقة عظيمة ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي: يائسين وقانطين قبل نزوله من أن يحل بهم وبديارهم المطر، مما يستوجب الحمد والشكر بعد نزوله عليهم، كما يبين هذا أن الله تعالى قد يمسك عن عبده أو بعض عباده شيئاً مما يحبون لحكمة منه، لعلهم يتذكرون، ولعلهم إليه يرجعون إليه مؤمنين صادقين، ولعلهم يتوبون ويتضرعون، ويدركون قيمة وفضل النعمة عليهم، فيؤمنوا، وتخبت له عَزَّ وجل قلوبهم.

ثم يوجه الله تعالى العباد إلى التأمل في أثار رحمته بإحياء الأرض بعد موتها، وبمثل ذلك يحي العباد بعد موتهم ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يتوجه الخطاب من الله تعالى لعباده من خلال مخاطبة الرسول صلى الله عليه

وسلم بالتأمل والتفكر في رحمته بعباده، إذ جمع السحاب وساقه لهم بالرياح، ثم أمر فنزل المطر، فعادت الحياة للأرض بعد أن ماتت بالجفاف، وبمثل هذا الإحياء للأرض بعد موتها، وفناء ما عليها من النبات، يكون البعث لمن في القبور، فيعيدهم للحياة كما بدأ خلقهم من قبل، ليحاسبهم ويجزيهم، كلاً بما قَدَّم.

وقد ورد البيان الكريم بفعل الأمر ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ الذي يحمل الأمر بالالتفات والانتباه بنظر العين والبصيرة وبالتبصر الذي يحمل التأمل والتفكر ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ إلى أثر الغيث الذي هو رحمة الله تعالى التي أصاب بها من أصاب من العباد ﴿ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾ فتأمل في كيفية إحياء الأرض بعد موتها، كيف ينزل الغيث، ثم تُنبت الأرض، من غير بذور تبذر، ولا حرث يُحْرَث، ومن غير ماء تُسقى إلا بما نزل من المطر، ومن غير تدخل للإنسان في ذلك، إلا ما كان خاصاً بالإنسان مما يقوم به من الحرث والزرع.

ثم يتدرج السياق بالْمُخَاطَبين إلى المراد من البيان ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ فيقررهم الله تعالى بهذا البيان المنظور والمشاهد من الإحياء بعد الإماتة إلى تقرير إعادة بعث الإنسان بعد موته، كما أعاد إحياء الأرض بعد موتها. فالذي خلق وأنبت الزرع بهذه القدرة، لا يعجزه إعادة الخلق بالبعث لهم من القبور. أفمن هذه قدرته العظيمة، أيعجز عن إعادة الخلق بعد الموت؟ فإن الإجابة: لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى. لأنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ كما اتضح وتبين لكم أيها الْمُخَاطَبُون عظيم قدرته في إنبات الأرض بعد موتها. فإذاً لماذا الجحود والإنكار والكفر بالبعث بعد الموت؟ فإنه إنكار في غير محله. ودلالة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ تقرر بما سبق من البيان أن له عَزَّ وجل كمال القدرة، وتنفي العجز كلياً. فإنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فمن له كمال القدرة، فإنه ينتفي عنه سبحانه وتعالى ما هو من خصائص الإنسان من العجز، والمشابهة، بل ومن جميع خلقه. فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى.

ومن عظمة البيان الكريم أنه أورد سبحانه وتعالى ما يُوجب التأمل والتدبر، بدلالة كلمة النظر ﴿ فَٱنظُرۡ ﴾ التي تشد الانتباه، وتلفت حواس التلقي نحو التأمل، بتقليب البصر والبصيرة، وتقليب الفكر في آثار رحمة الله تعالى، لتكتشف النعمة أولاً، وما يجب حيالها، وليتعرف الإنسان على كمال وعظمة قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الإماتة، وقياس الغائب من الغيب على الْمُشَاهد، فيقيس إحياء الأرض بعد موتها، على عدم امتناع إحياء الإنسان وبعثه بعد موته.

كما تفيد دلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ استثارة الذهن ليتصور عملية الإحياء، والقدرة الربانية المذهلة، وكذلك إمساك المطر عنهم حتى تشوقوا له وتمنوه من شدة الفاقة والحاجة، ثم جاءهم على حين طمع وتمني. لينكشف لهم بذلك تحكم الله تعالى في الكون، ومجرياته، وليدركوا ضعف تصورهم، وضعف عقولهم، إن لم يُوظفوها ويعملوها وفق منهج الله تعالى، الذي يصحح المفاهيم، وينور العقل بالعلم والفهم والقياس الصحيح، فينقل الإنسان من الضمور الفكري إلى السعة التي توصله إلى النجاة والخير. كما أن دلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور الإنسان ما يحيط به من عجائب قدرة الله تعالى المبثوثة في الكون. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه بها الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنها وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

وبعد أن أوضح تبارك تعالى حال الناس عند رؤية الرياح المبشرة بما تحمله من السحاب، والفرح والاستبشار بنزول المطر بعد الجذب، وتأخر نزول المطر، فاستبشروا بما أصابهم من الخير، فإن حالهم ومعتقدهم كذلك يتغير إلى الضد عند نزول البلاء. فيخبر سبحانه وتعالى عن حال أهل الضلال عندما يحل بهم شيء من الابتلاء بعد الرخاء، فإنه يحصل منهم الكفر والإنكار لما سبق من الخير والإنعام عليهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ فلئن أرسلنا ريحاً على زروعهم فأفسدته لهم ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي: تغير لونه من اللون الأخضر إلى اللون الأصفر الذي يدل على الهلاك والدمار، فعرفوا بذلك أنه قد بدأ فيه التلف، وظهر عليه الهلاك والفساد بتلك الريح، فإن حالهم هو: ﴿ لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ لصاروا وأصبحوا بعده جاحدين مستمرين في جحودهم لما سبق من الإنعام عليهم، وكأنه لم تصبهم نعمة من قبل، فيحصل لهم نكران النعمة، واليأس والقنوط من أن يعود الخير عليهم، من دون تفكير في سر الابتلاء وأسبابه وعلله.

مما يفيد أن المؤمن لا يكون حاله كحال هؤلاء، بل يحمد الله تعالى على ما سبق، وعلى ما حدث، ويستغفر ويتوب، ويأمل أن يُعيد الله تعالى الخير كما بدأه، ويحاسب نفسه، على أساس أن هذا نوع من الابتلاء، إما لوجود تقصير، ومعصية، أو اختبار من الله تعالى وتمحيص، أيصبر أم ينكر النعمة السابقة، أو ينظر لما حل به فقط، لأن الابتلاء محفوف به الإنسان، إما عقاباً له، أو اختباراً له. ونسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة. مما يبين مدى حاجة الإنسان لأن يسأل الله تعالى العفو والعافية كل لحظة ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فلا يعافي إلا الله تعالى، ولا يزيل ويدفع البلاء إلا الله تبارك وتعالى.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ
جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ
﴿٥٤﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ
كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ثم يبين الله تعالى مسلك الناس المعاندين المكابرين، وقوة عنادهم وامتناعهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم. وأنه مهما عملت أيها الرسول صلى الله عليه وسلم واتخذت من الأساليب الدعوية فإنه غير مجدي معهم أبداً ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ فإن حال بعض من تدعوهم إلى الله تعالى كالموتى حيال ما تدعوهم إليه ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ فكما أنك لا تستطيع ولن تتمكن من إسماع الموتى ما تُريد إسماعهم، فإن حال بعض الناس كحال الموتى، ومماثلين لهم. وفي هذا تشخيص لأحوال بعض الناس عند مخاطبتهم ودعوتهم للحق، فيأخذهم الاستعلاء والكبر إلى درجة أنهم عن سماع الحق كالموتى.

ثم يصفهم سبحانه وتعالى بوصف آخر، لتأكيد الوصف الأول، وإمعان في تجليته، ومبالغة في توضيحه للناس ﴿ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ وكما أنك لا تستطيع إسماع الحق للأصم المدبر عنك، فإنه كذلك حال بعض من تدعوهم إلى الهدى كمثل حال الأصم تجاه ما تدعوهم إليه من الحق المبين، الذي أنت عليه، بما يفيد أنه لن ينتفع منك من مات قلبه عن سماع الحق، كما أنه لن يستفيد منك من أغلق أذنيه عن سماع الحق. لأنهم إذا سمعوه ﴿ وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ كراهة منهم للحق، ومحبة للباطل. فجمعوا بين التولية والإدبار: فالتولية والْمُولِّي هو الراحل عنك، والمدبر هو من يعطيك ظهره، فيكون حالهم عند سماع الحق هو الرحيل عنك وعن كلامك ودعوتك لهم، وقد أعطوك ظهورهم، وهو كناية عن قوة الرفض، والاستخفاف بالحق، والكراهية له، فلا يستطيعون سماعه من قوة الباطل الذي في قلوبهم. وفي هذا تشخيص لأحوال بعض الناس تجاه المواعظ والنصح. فبمثل هؤلاء يا أيها النبي لا تُشغل نفسك بهم عن غيرهم ممن يَقبلون ويُقبِلُون على الحق، لأن للحق قَبول في نفوسهم. فهناك من يريد الحق، فعليك بهم. وهذا درس لكل داعية إلى الخير والصلاح. كما يفيد بأن من يتولى ويدبر عن الخير والحق، فلا تُشغل نفسك به عن غيره ممن عنده قبول للحق، وهو مسلك

يفيد استثمر الراغبين، ولا يشغلك عنهم الصادين، فتتابعهم، فيضيع الوقت فيهم عن غيرهم. وهي قاعدة مهمة في عموم استثمار أوجه الخير.

ثم يؤكد ويبين سبحانه وتعالى ما سبق بمثل آخر عن صورة وهيئة الممتنعين عن قبول الحق، وهم المتعامين عن كل ما تبذله من جهد وحرص ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فما أنت يا أيها النبي صلى الله عليه وسلم بمرشد من أعمى قلبه وطمسه عن الحق وتمانع عن قبوله، نتيجة لِمَا هو عليه من الضلالة، فكما أنك لن تستطيع هداية الأعمى بالوصف لما هو أمامه من عثرات الطريق، فتُريه مَشَاهد الحق لينظره بعينه، فكذلك الذين انطمست قلوبهم عن الحق، فإن حالهم كحال الأعمى. فهم أولئك المتمسكين والمتشبثين بالباطل. فلا يريدون رؤية الحق. وبمعنى: ما أنت بقادر على أن تصرف من عَمِي عن الحق، لتقوده عما هو فيه من الضلالة إلى النور المبين. فكما أنك لا تستطيع أن تُري مَشَاهد الحق للأعمى لينظره بعينه، فإن حال بعض من تدعوهم إلى الهدى كمثل حال الأعمى الذي انطمست عينه عن المشاهدة، لأنه قد فقد بعماه رؤية ما أمامه من المشاهد التي تدعوهم إليه من الهدى الواضح المبين، الذي أنت عليه مقيم في دعوتك ونهجك كله.

مما يفيد أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وعن اختياره للحق أو الباطل، كما أوضح الله تعالى ذلك في كتابه القرآن العظيم. فقد ألْهَمَ سبحانه وتعالى كل نفس فجورها وتقواها، كما قال عَزَّ وجل في سورة الشمس ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ ثم يأتي التذكير بالحق من خلال الكتب والرُّسُل، ثم لكل عبد مشيئته في أن يستقيم أو لا يستقيم. كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ومشيئة كل أحد تحت مشيئة الله عَزَّ وجل، ليست منعزلة عن مشيئة ربها وخالقها، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فلا يعني أن عصيانهم بالكفر هو خروج عن مشيئة الله عَزَّ وجل، فلو شاء لأرغمهم وقهرهم على الإيمان. ولكن حتى تستوفي كل نفس ما تستحق، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

ثم يثبت سبحانه وتعالى أن استماع الحق وقبوله خاص بنوع واحد من الناس، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ هذا النوع الذي يُمكن أن تُسمِعُهُ الحق فيقبله، هو ﴿ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ فهو الذي إذا سمع آيات الله تعالى وحججه وبراهينه يصدقها، لأنه يُذعن للحق، ويحب الحق، ويقدمه على باطله وعلى جهله، فصفتهم ﴿ فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يستسلمون للحق، وينقادون له، فلا يأخذهم الكبر والتعالي عن الحق أبداً. وهذا تشخيص لحقائق الناس ومعادنهم ونفوسهم. مما يفيد أن القلوب المتواضعة للحق تقبله، وتؤمن به وتصدقه، فلا منازعة للحق في قلوبهم، وأما المتكبرين المتعالين فإنهم عن الحق يصدون. فمنهم من قلبه كالميت تماماً تجاه الحق، فكما أن الميت لا إحساس له، فكذلك هذا النوع لا إحساس له تجاه قبول الحق. ونوع كالأصم، يُغلق أذنيه عن الحق وذلك لمحبته الباطل. ونوع كالأعمى، الذي لا يبصر ما أمامه، فيصد عن رؤية الحق حتى لا يتأثر به. فنسأل الله تعالى التواضع للحق بفضله وكرمه وتوفيقه، وأن يجعلنا أحضاناً للحق، ودعاة إليه. وهذا يبين أهمية تربية النفس على التواضع للحق، وقبوله، مهما كان مصدره. لأن قبول الحق ربح ونجاة في جميع الأحوال والمواقف. والكبرياء مانع وحاجز عن كل خير وفضل. فإن المتعالي بالاستكبار يصل به الأمر أن يمنع نفسه عن نعيم الآخرة، لما في قلبه من الكبر والغل والحسد والتعالي.

ويستمر البيان الرباني في إظهار الآيات المبرهنة على كمال قدرته، وعظيم تدبيره عَزَّ وجل، ومن ذلك أطوار خلق الإنسان، فقال تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ الله تعالى وحده لا شريك له، هو الذي خلقكم عبر أطوار متتالية، فأولها ومنطلق بدايتها ونشأتها الضعف ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ فأول مراحل خلقكم ونشأتكم الضعف، والتي عَبَّرت عن مرحلة الطفولة وعن ما سبق من مراحل التكوين، المتمثلة في النطفة والعلقة والمضغة، ثم جنيناً في بطن الأم، ثم ولادته، ورضاعته، وطفولته حتى ينتقل إلى مرحلة القوة ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهي مرحلة الشباب التي يكون فيها الإنسان في أقوى قوته الجسمية، وكمال عقله، ورشده وأَشُدَّهُ. قال السيوطي رحمه الله تعالى في سورة الأحقاف ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قال: أشده: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تمامها، وهو أكثر الأشد[١] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ رشده في سنوات هذه المرحلة. من سبعة عشر إلى الأربعين. وقد تم تفصيل ذلك في أول آيات سورة الحج.

ثم يعود بعد القوة وتمامها وكمالها في تدرج دقيق إلى حالة الضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ أي: الضعف الذي هو خلاف القوة. ويحصل بتدرج دقيق، كما حصلت القوة بتدرج دقيق إلى كمالها في سن الأربعين، ثم التدرج إلى الضعف، الذي لا يكون حصوله في سنة محددة، بل في تنازل متدرج،

---

(١) السيوطي، تفسير الجلالين، ص (٥٠٤)

شيئاً فشيئا. ثم عطف سبحانه وتعالى على الضعف تمامه، وهو ﴿وَشَيْبَةً ﴾ وهو تمام الضعف. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: الشيبة: هي تمام الضعف، ونهاية الكبر[١] ومن دقائق الوصف أنها لم تحدد بعمر وسن محدد لا يتجاوزه الإنسان، لتستوعب اختلاف حالات الناس في ذلك، أي: في الهرم وحصول الضعف.

ثم يقرر سبحانه وتعالى النتيجة التي يجب أن يفهمها ويدركها الإنسان، وهي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ فإن الله تعالى يخلق من الخلق ما يشاء، ومنها القوة والضعف، وتحصيلها وحصولها في الإنسان، وتحولها بتدرج لا يستطيع الإنسان أن يلحظ تلاحقها الدقيق، ولا أن يتحكم فيها، فيوقف القوة فلا تضعف، أو يمدها ويُطِيلُها بحسب ما يريد من الحال ومن الزمان، بل لله الأمر جميعاً، وله ما يشاء وكيف يشاء سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ فهو العليم بما يدبره من أمر وشأن عباده، ومن ذلك الإنسان، وأطوار حياته، وضعفه وقوته، لأنه ﴿ٱلْقَدِيرُ ﴾ الذي يُقَدِّرُ ما يشاء وكيف يشاء، والقادر على خلق ما يشاء، وعلى الهيئة والوجه الذي يريد. وفي هذا لفت الانتباه بأن يتأمل الإنسان أطوار حياته، وأطوار حياة جنس الإنسان عموماً، وتباين ذلك في الناس، فيتجلى ويتبين منه علم الله تعالى، وقدرته، وإبداع خلقه في خلقه، بالكيفية التي يريدها، حتى أن المخلوق مسلوب الإرادة في اختيارها وتوصيفها وتحديدها، أو تقديم أو تأخير أو إيقاف مرحلة من مراحل العمر للوقت الذي يريده، ليظهر ضعف الإنسان في تصريف نفسه، وتظهر قوة الله تعالى في تصريف شأن الإنسان وغيره مما خلق جَلَّ جلاله. ليغرس في المتأمل أن الله تعالى على كل شيء قدير، بما يلزمه الإيمان والخضوع لربه سبحانه وتعالى، والإيمان بما جاء عن الله عَزَّ وجل من أخبار الغيب، كالبعث والنشور، والجنة والنار، والحساب والجزاء. كما يفيد هذا أهمية التأمل والتدبر، فإنها عبادة يقوى بها إيمان المؤمن، وتقود غيره إلى الإيمان والتصديق بالله تعالى، وبجميع ما ورد عنه عَزَّ وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد البيان الكريم عن آية أطوار خلق الإنسان التي أثارت الفكر والتفكر في عظيم قدرة الله تعالى، وإبداعه في خلقه عَزَّ وجل، ينتقل بالسياق إلى شأن الساعة التي يجب أن يؤمن بها الْمُخَاطَب كثمرة ونتيجة لما سبق من بيان آيات الخلق، وآيات الحجج والبراهين التي تعددت وتنوعت بكثرتها في هذه السورة العظيمة، سورة الروم. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ فحين تقوم الساعة يوم القيامة ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ يحلف المجرمون الذين كانوا يشركون ويكفرون، ويكسبون الآثام والأوزار؛ بأن إقامتهم في الدنيا لم تكن من حيث الزمن إلا ساعة. فكذبوا في حلفهم كما كذبوا بالحق في الدنيا. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وسميت

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٣٢/٤)

القيامة بالساعة لأنها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا، وقال: أي: يحلفون ما لبثوا في الدنيا أو في قبورهم إلا ساعة، فيمكن أن يكونوا استقلوا مدة لبثهم، واستقر ذلك في أذهانهم، فحلفوا عليه، وهم يظنون أن حلفهم مطابق للواقع. وقال ابن قتيبة: إنهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل[١] أي: في الدنيا. مما يدل على أنهم كما تجاهلوا الحق في الدنيا كان منهم الجهل والكذب بمدة لبثهم. وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: يقسمون بأنهم لم يلبثوا في قبورهم غير ساعة واحدة، فيقول الله جَلَّ ثناؤه ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴾ كذلك في الدنيا كانوا يؤفكون أي يكذبون، فكذبوا في قيلهم وفي قسمهم[٢] قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: أُفِكَ الرجلُ: إذا عُدِل به عن الصدق[٣] فلازمهم الكذب حتى يوم القيامة، وذلك لذهولهم بالحقيقة التي كانوا ينكرونها ويستبعدونها.

ولكن أهل العلم والإيمان لا ينسون ذلك اللبث، فيقررون لهم خطأ قولهم كما قال الله تعالى عنهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فصحح المؤمنون للمشركين كذبهم عندما قالوا أنهم لم يلبثوا إلا ساعة ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ فقال من رزقهم الله تعالى العلم والإيمان: ليس الأمر كذلك كما قلتم ، بل ﴿ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ لقد لبثتم فيما كتب الله تعالى فيما سبق به علمه إلى يوم البعث. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: في كتاب الأعمال إلى يوم البعث، أي: من يوم خُلقتم إلى أن بُعثتم، ولكنكم كنتم لا تعلمون[٤] ثم يؤكدون لهم سبب جهلهم ﴿ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ فكنتم باستهزائكم وتكذيبكم جاهلون به، فها هو اليوم الذي كنتم عنه تتغافلون فإنكم اليوم تعيشونه. وهذا مصداق قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢ ﴾ فكما كانوا في الدنيا متغافلين عمياً عن الحق، فهم اليوم كذلك. مما يفيد التحذير والانتباه، فقد بين الله تعالى لعباده ما هو كائن قبل أن يكون، وكيف يكون، وكأنهم يعيشون ذلك اليوم تماماً.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٣٢/٤)

(٢) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٢٦/١٨-٥٢٧)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٥٧/٦)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/٣)

ثم يخبر الله تعالى بأنه في ذلك اليوم لا ينتفع المكذبون بما يعتذرون به، فلا ينتفع الإنسان إلا بعمله الذي قدمه في الدنيا ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فعند ذلك اليوم لا ينتفع الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا الحق بإنكاره أن يتقدموا بالاعتذار عما كان منهم من الكفر.

فلا يُطلب منهم الْعُتْبَى ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ التي هي الاسترضاء، فلا يُطلب منهم أن يُرضُوا ربهم تبارك وتعالى، إذ ليس الوقت ذاك هو وقت اعتذار وتراجع عن الكفر والجحود، فليس لهم الحق في الاعتذار، ولا حتى أن يُطلب منهم أن يلتمسوا رضى الله تعالى ذلك الوقت، فقد انقطع العمل، ووقع الحساب والجزاء، وفي هذا إقناط لهم، وإخبار لهم بما سيكون عليه حالهم يوم القيامة. ومع كل هذا البيان والتفصيل لِمَا سيكون عليه أمرهم يوم البعث والنشور، إلا أن أكثرهم مستمر على الكفر والجحود. فلم يحرك الإخبار بما يؤول إليه أمرهم مشاعر الخوف عندهم من عذاب الله تعالى، فقد قست قلوبهم.

ومن دقائق البيان قطع الرجاء من خلال عطف الإذن والسماح لهم بأن يُستعتَبُون على انتفاء انتفاعهم بالاعتذار، لتأكيد اليأس وتقنيطهم، فقد عطف البيان الكريم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ على ما هو أعم، وهو ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ ليفيد المبالغة في قطع الرجاء من أن يكون هناك أمل لهم في تحقيق الطاعة والامتثال لله تعالى، عند معاينتهم لأهوال يوم القيامة. وجاء البيان بصيغة المبني لِمَا لم يُسمَّ فاعله ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لزيادة تهويل ذلك الموقف، الذي لا حيلة لهم فيه، ولا إرادة، ولا قدرة على تَوَقِّيه، حتى بالاعتذار والندم، ليتأكد لهم أن عليهم بسعة ما هم فيه من الدنيا، وأن يتداركوا أمرهم، وأما الآخرة فليس فيها إلا الحساب والجزاء. ومن أغراض عدم تسمية الفاعل هنا لإفادة شموليته، لعموم الكافرين، فلا يمنحون جميعاً قبولاً للاعتذار من الله تعالى، ولا يجدون جميعاً مقاماً للاستعتاب. كما أفاد عدم ذكر الفاعل لتهويل الموقف، وتجهيلهم بمن يحادثهم ويمنعهم، فلا يعرف الْمُخَاطَب من أهل الكفر كيف سيكون ذلك، ليزداد ذهولاً وخيفة وترهيباً، وليظل في حيرة وارتباك، وليكون في محل تجاهل واستصغار، فكما تجاهلوا آيات الله تعالى تم تجهيلهم بما لا يعنيهم من تفاصيل الموقف، فكان المهم هو أن يعرفوا ما سيكونون عليه، وأما تفاصيل ذلك فسيعرفونها يوم القيامة معاينة ومعايشة لها.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ويختم الله تبارك وتعالى سورة الروم بثلاث آيات فيها مواعظ عظيمة وجليلة، فيقول تبارك وتعالى عن كتابه القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ولقد قدمنا وعرضنا في هذا القرآن الأمثال المتنوعة التي تبين للمشركين ولغيرهم الحق، وتقوم به الحجة عليهم، ولكن المعاندون مُصِرُّون على كفرهم حتى ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ ﴾ فلئن أتيت هؤلاء المكذبين يا أيها الرسول بآية من الحجج ﴿ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ليقولن الجاحدون للحق ولرسالتك ونبوتك: إنكم يا من صدقتم محمداً فيما يقوله لكم إنكم أصحاب أباطيل فيما أتيتمونا به، وما نسمعه منكم. مما يفيد أن من الناس من هو عازم على الكفر والتكذيب للحق، وذلك من باب التعالي والكبر والحسد، وإلا فإن الله تعالى قد زَكَّا كتابه العظيم بكثرة الأمثال المبينة والموضحة للحق، مع تنوعها وكثرتها.

وفي تعميه سبحانه وتعالى للناس ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ما يفيد أن من كثرة الأمثال وتنوعها في القرآن أنها تستوعب عقول وأفكار الناس جميعاً، بما يدل على الإعجاز القرآني في تنوع أمثاله لتستوعب وتستوفي التنوع البشري. ويعضد بعضها بعضاً. وقد أفادت دلالة: الضرب، ودلالة الأمثال: عمق البيان، بتقريب ما يُراد بيانه بأقرب صورة له، لِتُمَاثِلَه وتحاكيه. فالضرب يحمل معنى الوصف والبيان والتمثيل، بإيقاع وصف على وصف، بينهم قاسم أو قواسم مشتركه من التشابه والتماثل، للاستدلال به على المراد بيانه وإعلانه وإعلامه للناس بأدق التمثيل له. كما يعزز قوة ضرب الأمثال في القرآن الكريم أنه من لدن الله عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ ﴾ فضارب المثل للناس هو الله سبحانه وتعالى، وبالتالي فهي في أقوى صورة، وأبرع بيان، فمن لم يهتد بها، ويذعن لها، فهو جاحد بلا ريب. كما أن قوله تعالى ﴿ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ ما يستوفي به كمال البيان في تنوعه وكثرته وتعاضده، والذي لا يعارضه ولا يصد عنه إلا جاحد كافر.

ومن تعزيز الله تعالى لهذه الأمثال وتأكيدها أن تقدم البيان حرف التأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ الذي يفيد التحقيق والتوكيد لما بعده، وبما يفيد الجزم الذي لا يخالطه شك ولا ريب. فيخاطب الله تعالى عباده بالتوكيد، وقوة البيان، وهم عبيده، وهو ربهم وخالقهم، مما يدل على رحمة الله عَزَّ في علاه. فالحمد لله على فضله ورحمته، وكريم خطابه وبيانه سبحانه وتعالى.

ومن قوة عنادهم أنك يا أيها النبي ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ففي هذا البيان كشف لمبالغتهم في الجحود، فمهما كانت الآية في قوة بيانها، فإنهم يرمون من اتعظ بها أنه مُبطل، باتباعه الباطل. بما يعني أنهم يصفون أنفسهم بأنهم أهل الحق والعلم. وأن من معه الحق هم أهل الباطل والجحود للحق.

ثم يبين الله تعالى قوة عقوبته لهم: بأن يطبع على قلوبهم بعدم الإيمان، جزاء وفاقاً لهم ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فبمثل عملهم وجحودهم وكفرهم بآيات الله تعالى، ونفورهم من العلم بآياتنا وحججنا، نعاقبهم بأن يتم الطبع عليها، بإبقائهم على ما هم عليه من الجهل والكفر. قال السعدي رحمه الله تعالى عن الطبع على قلوبهم: فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً[1] فيموتوا على الكفر، بما طبع الله تعالى به على قلوبهم. مما يفيد الحذر من العناد في دين الله تعالى بالباطل، فإن الله تعالى له عقوبات عظيمة، فنسأل الله تعالى العفو والعافية والستر في الدنيا والآخرة.

ثم يختم الله تعالى سورة النور بتوجيه عظيم لرسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له عليه الصلاة والسلام، فيقول الله تباك وتعالى ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ فاصبر أيها النبي صلى الله عليه وسلم على طغيان من طغى وتكبر، فإن ما وعد الله تعالى به سيكون كما وعد. وقد ورد الصبر عاماً ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ ليشمل الصبر على جميع أنواع ما يوجه، وجميع ما أُمِر به عليه الصلاة والسلام. فيكون الصبر على ما يحدث من الأعداء، والصبر على ما أمرناك به، وعلى جميع ما تواجه، ثم يبشر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يعززه ويقويه ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ إن ما وعدك الله تعالى به حق كائن، من الأجر، والنصر، وبلوغ الدين مشارق الأرض ومغاربها.

ثم يوجه الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن لا يكترث بمن صد عن دعوتك له، وأيضاً لا يحملونك باستفزازهم وعنادهم بما أنت عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن التعامل ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾فلا يحملونك هؤلاء الذين انعدم اليقين منهم، على أن يظهر منك ما لا يجب أن يكون من سمتك وأخلاقك. لأن المستفز لغيره، يُغري من استفزه ليخرج عما أُعتيد منه، حتى يتعامل بما لا يحب مع غيره، فيظهر بما لا يريد ويحب أن يظهر به. وفي هذا تعليم للمؤمنين بأن لا ينجروا وراء من يستفزهم. بل على

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٩٨)

المؤمن أن يتحلى بالصبر والثبات، والله تعالى لا تخفى عليه خافية من الأعمال. لتكون صورة وهيئة المؤمن مملؤة بالوقار والعدل والصبر، وعدم الاكتراث باستفزاز المبطلين. فهو توجيه عظيم لأخلاق المؤمن في جميع ملتقياته مع الناس، وعلى جميع المستويات. وهو منهج مؤثر ومؤدب لمن يستفز، ومنهج يرفع من قدر ومكانة من لا يستفزه المبطلون. ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يتحلى بمكارم الأخلاق في السراء والضراء، وأن تكون أخلاقنا أخلاق المؤمن المطيع لربه، والموفق والمسدد من الله عَزَّ وجل.

تم بحمد الله إتمام سورة الروم، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتوب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.